رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الثبات على الإسلام

تأليف
سليم بن عيد الهلالي
السلفي الأثري

دار المنهاج

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الثبات على الإسلام

جميع حقوق الطبع محفوظة
لـ "دار المنهاج"

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع: ٢٦١٨ /٢٠٠٤م

٨١ شارع الهدي المحمدي- متفرع من أحمد عرابي- مساكن عين شمس- القاهرة
جمهورية مصر العربية محمول: ٠١٢٣٩٥٣٣١٧
E-Mail:DarAlmenhaj@HotMail.Com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الثبات على الإسلام

تأليف

سليم بن عيد الهلالي
السلفي الأثري

دار المنهاج

قبس من التنزيل :

قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي مُحَمَّد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتُها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فِي النار.

اعلموا أرشدكم الله، وحبَّب إليكم الإيْمان، وزينه فِي قلوبكم،

وثبتكم على سبيله بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وفِي الآخرة، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان وما يقرِّب إليها: أنَّ العبد لا يستغني عن تثبيت الله له على الإسلام طرفة عين، فإن لَم يثبِّته الله وإلا زالت سَماءُ إيْمانه وأرضُه من مكانِهما.

إذا لَم يكن من الله عون الفتى فأوَّل ما يَجني عليه اجتهاده

ولقد امتن الله الكريم على أكرم خلقه عليه؛ عبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ بنعمة الثبات على الإسلام؛ فقال: ﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

وامتن أيضًا على صفوة عباده بِهذه النعمة؛ فقال سبحانه: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم:٢٧].

ولذلك ما مُنِحَ العبدُ منحةً أفضل من الثبات على الإسلام؛ حيث يَجد أهله ثَمرته وهم أحوجُ ما يكونون إليه فِي دنياهم، وفِي قبورهم، وفِي معادهم.

ولَمَّا كان الأمر كم علمت، وجب شرح القول فِي أبوابه، وأسبابه

وما يوهن عروته الوثقى، وضرب صور من ثبات السلف الصالح الأول؛ فإن النفس مَجبولة على التأسي؛ ولذلك بعث الله الرسل من بني البشر، فكانت هذه الرسالة المباركة -إن شاء الله- الموسومة بـ"الثبات على الإسلام".

ولكن ينبغي قبل الشروع فِي القصد تفصيل المقال بثلاث مقدمات:

❊ **الأولَى**: الثبات على الإسلام نعمة.

❊ **الثانية**: الثبات على الإسلام غرس.

❊ **الثالثة**: غراس الإسلام باقية على الرغم من الرياح العاتية.

ودونكم إخوة الإيْمان هذا البيان الذي يثبت الله به الأقدام، ويربط على قلوبكم، ويذهب عنكم رجز الشيطان.

أسأل الله ﷻ أن يكتب لَها القبول الحسن؛ فتكون إمامًا يهدي للَّتِي هي أقوم بالَّتِي هي أحسن.

فمن وجد صوابًا؛ فليحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، ومن وجد غير ذلك فلا يألُ جُهدًا فِي النُّصح لي وتذكيري، فإن ذلك من ضعفي وتقصيري، والمرء قويٌّ بإخوانه: الذين يتواصون بالحق، ويتواصون

بالصبر، ويتواصون بالمرحمة.

وعلى الله قصد السبيل.

وكتبه

حامدًا ومصليًا ومسلّمًا

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ضحى يوم الخميس لسبع بقين من

شعبان سنة ١٤٢٠ من هجرة رسول الله

ﷺ في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدمة الأولى
الثبات على الإسلام نعمة

وتنبني هذه المقدمة على ثلاثة أركان ينتظمُها قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

❊ الأول: ما هي النعمة؟

"الله سبحانه المسئول المرجو الإجابة أن يُمتعكم بالإسلام والسنَّة والعافية؛ فإن سعادة الدنيا والآخرة ونعيمهما وفوزهُما مبني على هذه الأركان الثلاثة، وما اجتمعت فِي عبد بوصف الكمال إلا وقد كملت نعم الله عليه، وإلا فنصيبه من نعمة الله بحسب نصيبه منها.

❊ والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة، ونعمة مقيدة:

● **النعمة المطلقة:** هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي: الإسلام والسُّنة، وهي الَّتِي أمرنا الله ﷻ أن نسأله فِي صلواتنا أن يهدينا صراط أهلها، ومن خصهم بِها، وجعلهم أهل الرفيق الأعلى حيث يقول تعالى: ﴿وَمَن

يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة، وأصحابُها أيضًا هم المعنيُّون بقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

فأضاف الدين إليهم، إذ هم المختصون بِهذا الدين القيم دون سائر الأمم.

والدين تارة يضاف إلَى العبد، وتارة يضاف إلَى الرب، فيقال: الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد دينًا سواه؛ ولِهذا يقال فِي الدعاء: «**اللهم انصر دينك الذي أنزلت من السماء**».

ونسب الكمال إلَى الدين والتَّمام إلَى النعمة، مع إضافتها إليه؛ لأنه هو وليُّها ومسديها إليهم، وهم مَحل محض النعمة قابلين لَها، ولِهذا يقال فِي الدعاء المأثور للمسلمين: «**واجعلهم مثنين عليك، قابليها، وأتممها عليهم**».

وأما الدين فلما كانوا هم القائمين به، الفاعلين له بتوفيق ربِّهم نسبه إليهم، فقال: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. وكان الإكمال فِي جانب الدين، والإتمام فِي جانب النعمة.

واللفظتان -وإن تقاربتا وتواخيتا- فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل؛ فإن الكمال أخصُّ بصفات المعانِي، ويطلق على الأعيان والذوات، ولكن باعتبار صفاتِها وخواصها، كما قال النَّبي ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولَم يكمل من النساء إلا مريْم بنة عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد**»(١).

وقال عمر بن عبد العزيز: "إن للإيْمان حدودًا وفرائض، وسننًا وشرائع، فمن استكملها فقد استكمل الإيْمان".

وأما التمام فيكون فِي المعانِي، ونعم الله: أعيان، وأوصاف، ومعانٍ.

وأما دينه؛ فهو شرعه المتضمن لأمره ونَهيه ومحابِّه، فكانت نسبة الكمال إلَى الدين، والتمام إلَى النعمة أحسن، كما كانت إضافة الدين إليهم، والنعمة إليه أحسن.

والمقصود: أن هذه النعمة هي النعمة المطلقة، وهي الَّتِي اختصت بالمؤمنين، وإذا قيل: ليس لله على الكافر نعمة بِهذا الاعتبار؛ فهو صحيح.

● **والنعمة الثانية: النعمة المقيدة**: كنعمة الصحة، والغنَى، وعافية

(١) أخرجه البخاري (٦/٤٤٦- فتح)، ومسلم (١٥/١٩٨-١٩٩ نووي).

الجسد، وبسطة الجاه، وكثرة الولد، والزوجة الحسنة، وأمثال هذه.

فهذه النعمة مشتركة بين البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وإذا قيل: لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار؛ فهو حق.

فلا يصح إطلاق السلب والإيجاب إلا على وجه واحد، وهو أن النعمة المقيدة لما كانت استدراجًا للكافر، ومآلها إلَى العذاب والشقاء، فكأنَّها لَم تكن نعمة، وإنَّما كانت بلية، كما سَمَّاها الله تعالى فِي كتابه كذلك، فقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ**﴾ [الفجر:١٥-١٧].

أي: ليس من أكرمته فِي الدُّنيا ونعَّمته فيها فقد أنعمت عليه، وإنَّما كان ذلك ابتلاء منِّي له واختبارًا، ولا كُلٌّ من قدرتُ عليه رزقه؛ فجعلته بقدر حاجته أكون قد أهنته، بل أبتلي عبدي بالنعم كما أبتليه بالمصائب.

فإن قيل: كيف يلتئم هذا المعنى ويتَّفِق مع قوله: ﴿**فَأَكْرَمَهُ**﴾. فأثبت له الإكرام، ثُمَّ أنكر عليه قوله: ﴿**رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾. وقال: ﴿**كَلاَّ**﴾. أي: ليس ذلك إكرامًا منِّي بل هو ابتلاء، فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه؟

قيل: الإكرام المثبت غير الإكرام المنفي، وهُما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة، فليس هذا الإكرام المقيد بموجب لصاحبه أن يكون من

أهل الإكرام المطلق.

وكذلك **أيضًا إذا قيل**: إن الله أنعم على الكافر نعمة مطلقة، ولكنه ردَّ نعمة الله وبدَّلها، فهو بِمنْزلة من أُعطي مالاً؛ ليعيش به؛ فرماه فِي البحر؛ كما قال: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا**﴾ [إبراهيم:٢٨].

وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [فصلت:١٧].

فهدايته إياهم نعمة منه عليهم، فبدّلوا نعمة الله، وآثروا عليها الضلال"[١]. اهـ.

الثانِي: الإسلام هو النعمة الحقيقية التامة.

إن دين الله هو النعمة الحقيقية فبها يكمُلُ العبدُ؛ لأن: "الإنسان" لا قيمة له قبل أن يعرف إلَهَهُ كما يُعرِّفهُ هذا الدين له، وقبل أن يعرفَ الوجودَ الذي يعيشُ فيه كما يعرفه له هذا الدِّين، وقبل أن يعرف نفسه ودورَه فِي الوجود وكرامته على ربِّه كما يعرف ذلك كُلَّه من دينه الذي رضيه له ربُّه.

و"الإنسان" لا قيمة له قبل أن يتحرَّر من عبادة العباد بعبادة ربِّ

(١) "اجتماع الجيوش الإسلامية": ابن قيم الجوزية، (ص١-٣).

العباد وحده.

و"الإنسان" بدون هذه القيم الَّتي حبَاهُ بِها الله فِي هذا الدين القيم كالأنعام السَّائمة بل هو أضل؛ لأنه بدّل نعمة الله كفرًا.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤].

فإذا كان أمر الدِّين كذلك وزيادة؛ فهو النعمة الحقيقية التامة الَّتي يفرح بِها فِي الحقيقة، والفرح بِها مِمَّا يُحبُّهُ الله ويرضاه، وهو لا يُحبُّ الفرحين، حيث قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وفضل الله ورحمته هو: الإسلام والسُّنَّة.

وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بِهما، وكلما كان أرسخ فيهما كان قلبه أشد فرحًا، حَتَّى إن القلب إذا باشر نور الإسلام وخالط روحَ السُّنَّة ليرقص فرحًا أحزن ما يكون الناسُ.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

فصاحب السنة حيٌّ القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه.

وإحياؤه ﷻ بروحه الذي هو وحيه، وهو روح الإيْمان والعلم، وجعل له نورًا يَمشي به بين أهل الظلمة كما يَمشي الرجل بالسراج المضيء فِي الليلة الظَّلماء، وقد افتقد البدر، فهو كالبصير الذي يَمشي بين العميان.

ولذلك لا حياة حقيقية طيِّبة إلا بالإسلام، ولا رؤية حقيقية مبصرة إلا بالسنة، وهذان ركنا النعمة الحقيقية التامة "ولِهذا سمى الله سبحانه ما أنزل على رسوله روحًا؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونورًا؛ لتَّوقف الهداية عليه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر:١٥].

فِي موضعين من كتابه(١).

وقال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

(١) الموطن الثانِي: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢].

فلا روح إلا فيما جاء به، ولا نور إلا فِي الاستضاءة منه؛ فهو: الحياة، والنور، والعصمة، والشفاء، والنجاة، والأمن، والله ﷻ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به، ولا يقبل الله من أحد دينًا يدينه به إلا أن يكون موافقًا لدينه"[1]اهـ.

الثالث: نعمة التثبيت:

لا يدرك حقيقة نعمة الله فِي هذا الدين، ولا يقدرها حقَّ قدرها من لَم يعرف الجاهلية، ومن لَم يذق مرارة الكفر، وويلات البعد عن الله.

والذي عرف الجاهلية وعرف ويلاتِها ... فِي التصور والاعتقاد ... وواقع الحياة... هو الذي يحس ويشعر ... ويرى ويبصر ... هو الذي يتذوق حقيقة نعمة الله فِي هذا الدين.

الذي يعرف ويُعانِي ويلات الضلال والعمى .. وويلات الحيرة والهوى ... وويلات الضياع والتَّمزق ... الَّتِي تسيل بِها شعاب الجاهلية فِي كلِّ زمان وكلِّ مكان ... هو الذي يدرك نعمة الإيْمان الذي التقطه من درك الجاهلية وسَما به إلَى القمَّة السَّامقة؛ فإذا هو من علٍ ينظر إلَى أُمم الأرض ... ولكنه يتمزَّق حسرة عليهم ... ويُحاول انتشالهم من

(١) "الصواعق المرسلة" ابن قيم الجوزية (١/١٥٢).

أوهاق الطين إلَى آفاق اليقين.

وحينئذ يوطنُ قدميه على الصراط المستقيم شُكرًا لله على نعمة التثبيت؛ لأن شكر الله على نعمة الإسلام هو الثبات عليه.

ألَم تر أن الله ﷻ عقب على نعمة الثبات الَّتِي امتن بِها على الصفوة من عباده بقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**﴾ [إبراهيم:٢٨].

فعُلم أن شكر الله ﷻ على نعمة الإسلام هو: الثبات عليه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدمة الثانية
الثبات على الإسلام غرس

شبه الله ﷻ كلمة الحقِّ الطيبة المتمثلة فِي الإسلام بالشجرة الطيبة، الثابتة الأصل فِي الأرض رسوخًا، الباسقة الفرع فِي السماء علوًّا وشُموخًا، فهي زاكية نامية، تُنالُ ثَمرتُها فِي كل حين بإذن ربِّها، فقطوفها دانية تثمر كل وقت.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥].

إن هذا المثل القُرآنِي مطابق لشجرة الإيْمان والتوحيد الراسخة فِي قلب المؤمن، الَّتِي فروعها الأعمال الصالحة الصاعدة إلَى السماء، ولا تزال تُرمي بالحجر فتعطي الخير ثَمرًا، وذلك حسب ثباتِها فِي القلب، ومَحبة القلب لَها وإخلاصه فيها، ومعرفته بِحقيقتها، وقيامه بِحقها، واتِّصف بِها، وانصبغ بصبغة الله الَّتِي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة ألوهية الله الَّتِي يثبتها له، ويشهد بِها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفي

تلك الحقيقة عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه فِي هذا النفي والإثبات، واستسلمت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبيل الله ذللاً، غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً.

فلا ريب أن هذه الكلمة الطيبة من القلب المطمئن على هذا اللسان الذاكر لا تزال تؤتي ثَمرتَها من العمل الصالح والقول الطيب الصاعد إلَى الله آناء الليل وأطراف النهار.

هذه الكلمة الطيبة الَّتِي عرجت بالصالحات إلَى مقام القبول الحسن، وهذا العمل الصالح الذي يقارن الكلم الطيب؛ فيرفعه؛ كما فِي قوله تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر:١٠].

وفِي هذا المثل القرآنِي من الأسرار ما يليق به، ويقتضيه كمال علم الله الذي تكلم به، وحكمته ﷻ، ومن ذلك أن هذا القبول الحسن الذي تقبله الله به نبت نباتًا حسنًا، وتكفله صاحبه حَتَّى استوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بِهم الكفار، **وأمارات ذلك:**

أ- أن الشجرة لابد لَها من عروق، وساق، وفروع، وأوراق، وثَمر.

وكذلك شجرة الإيْمان؛ عروقها العلم واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها العمل الصالح والكلم الطيب، وثَمرها الآثار الحميدة، والأخلاق

الكريْمة، والسَّمت الحسن؛ فيستدل على غرس هذه الشجرة فِي القلب، وثبوتِها فيه بِهذه الأمور، الَّتِي تورث عند نضجها صاحبها سكينة يَجدها فِي قلبه، وطمأنينة تَملأ نفسه؛ فتثبت الأقدام على الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «**الإيْمان بضع وسبعون شعبة؛ فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيْمان**»[1].

ب- **أن الشجرة لا تبقى حية إلا بِمادة تسقيها وتنميها؛ فإذا قطع عنها السَّقي أوشكت أن تيبس.**

وهكذا شجرة الإيْمان فِي القلب، إن لَم يتعاهدها صاحبها بسقيها فِي كل وقت بالعلم النافع، والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التَّفَكُّر، وبالتفكُّر على التذكر، وإلا أوشك أن تبلَّد وتقسو.

وعلى هذا فالعبد مضطر غاية الاضطرار دائمًا أن يهديه الله صراطه المستقيم حَتَّى لا يقع فِي تلك الأحوال.

ولما كان العبد مضطرًّا لهداية الله، أرشده إلَى الابتهال والضراعة الصادقة بالسؤال أن يهديه صراطه المستقيم، وفرض عليه قراءة أم الكتاب فِي كلِّ ركعة من صلاته؛ لاشتمالها على السؤال العظيم الذي تتوقف

(١) أخرجه البخاري (١/٥١- فتح)، ومسلم (١/٦٣-نووي) واللفظ له.

السعادةُ فِي الدارين على حصوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

ولذلك فليتعاهد العبد نفسه، ليجدد إيْمانه بالطاعة حَتَّى يستكمله.

قال رسول ﷺ: «**إن الإيْمان لَيَخْلَق فِي جوف أحدكم؛ كما يَخلق الثوب؛ فاسألوا الله أن يُجدد الإيْمان فِي قلوبكم**»(١).

ولذلك فالغرس إن لَم يتعاهده صاحبه، أوشك أن يهلك.

ومن هنا تعلم يا عبد الله شدة حاجتك إلَى ما أمر الله به من الطاعات على تعاقب الأوقات، ومن عظيم رحْمته وتمام نعمته وإحسانه على عباده: أن وظَّفها عيلها، وجعلها مادة لسقي غراس الإيْمان الذي غرسه فِي قلوبِهم.

ت- أن الشجرة الطيبة لابدَّ أن يُخالطها نبت غريب ليس من جنسها.

فإن تعاهده صاحبها، ونقّاها، وقلعه، كمل الغرس، ونضج الزرع،

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وقال: "رواته مصريون ثقات"، ووافقه الذهبي.

قلت: رجاله كلهم رجال مسلم غير عبد الرحمن بن ميسرة، وهو أبو ميسرة الحضرمي المصري، وهو حسن الحديث

وحسنه الهيثمي فِي "مجمع الزوائد" (٧٢/١)، ووافقه شيخنا فِي "الصحيحة" (١٥٨٥).

واستغلظ على سوقه، وكان أوفر لثمرته، وأطيب، وأزكى.

وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو أن يضعف الأصل، ويجعل الثمرة ذميمة لا طعم لَها، بحسب كثرته وقلته، أو يصير هشيمًا تذروه الرياح.

لذلك فالمؤمن دائمًا سعيه فِي أمرين:

- **الأول**: سقي هذه الشجرة؛ لتبقى ويدوم الغرس.
- **الآخر**: تنقية هذه الشجرة؛ لتكتمل، ويتم الغرس.

وهذه صفة الجيل القدوة الأول مُحَمَّد ﷺ والذين معه فِي الإنجيل؛ كما أخبرنا بذلك فِي مُحكم التنْزيل: ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ [الفتح:٢٩].

فهم زرعٌ قويٌّ، يَخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العودَ بل يشدُّ من عضده فهو ردء له، فضخمت ساقه وامتلأت، واستقامت قويًّا سويًّا لا معوجًّا ولا منحنيًا.

فإذا نظر إليه أهل الخبرة فِي الزرع العارفين بالنامي منه والذابل، المثمر منه والبائر، وقع فِي نفوسهم موقع البهجة والإعجاب؛ لأنه

خصيب بَهيج: سوقه باسق سامق، طلعُهُ نضيدٌ.

أما وقعه فِي نفوس الكُفّار فعلى العكس؛ لأنَّهم رجس؛ فيكاد أحدهم يتميز من الغيظ كلما رأى غراس الإيْمان تثمر، وزرع اليقين يثبت ويصبر.

وفِي ظل الشجرة الثابتة مثلاً للكلمة الطيبة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

يثبت الله الذين آمنوا فِي الحياة الدنيا بكلمات الله التامة فِي كتابه العزيز، كلمات الرسول الَّتِي وعدت الحقَّ بالنصر فِي الدنيا، والاستخلاف فِي الأرض، والتمكين للدين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

ويثبتهم فِي الآخرة بكلمة الإيْمان المستقرة فِي القلوب، الثابتة فِي الفطرة، المثمرة بالعمل الصالح، والكلم الطيب، المتجدد الصاعد إلَى الله؛ يرجو رحمته ومغفرته، ويطمع بجنته.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

وكل ذلك أصول ثابتة صادقة، لا تتخلَّف عن الميعاد، ولا تتفرق بِها السُّبل، ولا يَمس أصحابَها قلقٌ، ولا حيرةٌ، ولا اضطرابٌ، ولا شكٌّ وارتيابٌ.

وفِي ظلِّ الشجرة الخبيثة النكدة المجتثة من فوق الأرض ما لَها من قرار ولا ثبات: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧].

يضل الله الظالمين؛ بظلمهم وشركهم وأشرهم وبطرهم للحقِّ وغمط الناس.

ويُضلهم ببعدهم عن النور الهادي، واضطرابِهم فِي تيه الظلمات وسراب الأوهام، وأوهاق الخرافة، فالخارجون عن طاعة الله ورسله -صلوات الله وسلامه عليهم- يتقلبون فِي ظلمات بعضها فوق بعض: ظلمة الطَّبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار؛ فالظلمة لازمة لَهم، أناخت بكلكلها فِي رحالِهم، ورضيت المقام فِي دارهم، فهم أموات غير أحياء.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

يضلُّهم وفق سننه الَّتي تنتهي بِمن ظلم وعمي وخضع للهوى، وتفرق عن الهدى إلَى الضلال، فبئس الحال والمآل ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

وبِهذه الخاتمة يتم التعقيب على مثل الثبات الذي يحوي دائمًا الحقيقة الكبرى الَّتي لا تتبدل، وحقيقة الصفة الَّتي لا تتغير.

وهذا المثل ليس بدعًا؛ فهو ثابت فِي علم الله، ومن ثُمَّ ورد ذكره قبل أن يجيء مُحَمَّد ﷺ ومن معه إلَى هذه الأرض.

وهذا المثل ليس أبتر؛ فهو ثابت بعد مُحَمَّد ﷺ ومن معه، وهو مِمَّا توضحه:

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدمة الثالثة

غراس الإسلام باقية على الرغم من الرياح العاتية

إن تعمُّد إغاظة الكفار يوحي أن هذا غرسٌ غرسه الله ﷻ وتعهده رسول الله ﷺ بالتربية، فهو من دلائل قدرة الله؛ لأنه أداة لإغاظة أعداء الله الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، وإخماد جذوته فِي نفوس المسلمين، ولكن الله متمُّ نوره ولو كره المشركون، ومظهر دينه ولو كره الكافرون.

قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال الله يغرس فِي هذا الدين غرسًا يستعمله فِي طاعته إلَى يوم القيامة»**(١).

(١) أخرجه البخاري فِي "التاريخ الكبير" (٩/٦١)، وابن ماجه (٨)، والدولابي فِي "الكنى والأسْماء" (١/٤٦)، وابن حبان (٨٩-موارد).

من طريق الجراح بن مليح البهرانِي ثنا بكر بن زرعة قال: سَمعت أبا عنبة الخولانِي: وذكره.

قلت: هذا إسناد حسن.

وقد وقفت على فائدة فِي "طبقات الحنابلة" (١/١٩٠) وهي تفسير هذا الحديث: "عن نعيم بن طريف عن أحمد بن حنبل فِي تفسير حديث النَّبِي ﷺ: **«لا يزال الله يغرس فِي هذا الدين غرسًا»**.

=

وهذا يوحي أن هذا الغرس مستمرٌ بثبات على طاعة الله حَتَّى يأتِي أمر الله وهم كذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حَتَّى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(١).

وهذه الصفة الخالدة لِهذه الغراس المختارة استظهرها أهل العلم؛ لأن فيها دلائل نبوة مُحَمَّد ﷺ:

"وفيه معجزة بينة؛ فإن أهل السنة لَم يزالوا ظاهرين فِي كل عصر إلَى الآن، فمن حين ظهرت البدع على اختلاف صنوفها: من الخوارج، والمعتزلة، والرافضة، وغيرهم، لَم يقم لأحد منهم دولة، ولَم تستمر لَهم شوكة، بل كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله بنور الكتاب والسنة؛

=

قال: "هم أصحاب الحديث".

قلت: وهو الحق الذي لا شية فيه؛ كما نطق بذلك أهل العلم الذين نقلت أقوالهم فِي كتابِي "**اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصور**".

(١) أخرجه البخاري (٦/٦٣٢، ١٣٢/٤٤٢- فتح)، ومسلم (١٣/٦٦-٦٧- نووي) وغيرهم من حديث معاوية بن أبِي سفيان ﷺ.

وأحاديث الطائفة المنصورة والفرقة الناجية متواترة؛ كما قال ابن تيمية فِي "اقتضاء الصراط المستقيم" (ص٦) وغيره؛ كما بينته فِي كتابِي: "اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة".

فله الحمد والمنة"[١].

ولذلك؛ فإن أعداء الله لن يستطيعوا استئصال شأفة هذه الطائفة؛ أو اجتثاث جذورها، ولو اجتمعوا له، وهم أنفسهم لا يزعمون ذلك، وإن تَمنوه، إنَّما الذي يحدث بقدر الله أنه بعد كل مذبحة يقوم بِها الكفار وأعوانُهم من منافقي هذه الأمة، يأتِي من جديد جيلٌ ذو بأس شديد، وتتسع قاعدة هذه الطائفة على الدوام، ويستمر ثباتُها على الإسلام، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(١) "فيض القدير": المناوي، (٦/٣٩٥).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول
أبواب الثبات على الإسلام

❊ الأول: الثبات فِي ساحة الجهاد فِي سبيل الله.

اعلموا -أرشدكم الله-: أن الجهاد فِي سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وهو فرض عين على كل مسلم: إما باليد، أو باللسان، أو القلب، أو جَميعًا.

والمسلم يُجاهد أعداء الله بنوع من هذه الأنواع حسب قدرته، وطاقته، وموقعه.

ولقد أخبر الله ﷻ أنه: ﴿**اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**﴾ [التوبة:١١١].

وأعاضهم عليها: ﴿**بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ [التوبة:١١١].

وأودع الله سبحانه هذا العقد والوعد أفضل كتبه المُنَزَّلَة: ﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ**﴾ [التوبة:١١١].

وأكده وبشرهم: ﴿**وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي**

بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

فليتأمل العاقدُ مع ربه هذه الصفقة ما أعظم خطرها، وما أجلَّ أجرها.

فإن الله -جل وعزَّ- هو الذي اشترى، والثمن جنات النعيم، والفوز العظيم، والمقام الكريم، فِي مقعد صدق عند البرِّ الرحيم.

والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنُها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم.

ولما كثر المدعون طولبوا بإقامة البَيِّنة على صحة دعواهم، فلو يعطى الناس بدعواهم، لفسدت السموات والأرض وما بينهما.

وتنوع المدَّعون بالشهود؛ فقيل: لا تقام البينة، ولا تثبت الدعوى، ولا يصحُّ البرهان إلا بشهادة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

فتأخرت الخلائق كلها، وثبت أتباع الرسول ﷺ الذين ثبتوا على أثره فِي المنهج والاعتقاد والسلوك والتربية، ودرجوا على فهم خير الناس: مُحَمَّد ﷺ والذين معه، ومن تبعهم بإحسان إلَى يوم الدين.

وعندئذٍ طولبوا بعدالة الشهود، فقيل: لا تثبت العدالة إلا بتزكية: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

لقد حرك داعي الله النفوسَ الأبية، والهمم العالية التقية:

فَحيَّهَلا إن كنت ذا همّة فقد حَدا   بِكَ حادي الشَّوق فاطو المراحلا

فهيئ نفسك أيُّها العبد المؤمن، ووطن قدمك يا مسلم، يا عبد الله.

قد هَيَّئوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ولكن اعلم أيها المسلم أن سلعة الله غالية، وأن مهرها بذل النفس والنفيس لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين.

ولما كان الجهاد هو بذل الوسع فِي حصول مَحبوب الحقِّ، ودفع ما يكرهُه الحقُّ، فالجهاد فِي سبيل الله لإقرار منهج الله فِي الأرض، وليكون الدين كله لله، لتحقيق الخير ... والصلاح والنماء ... هو صفة غراس الإسلام الثابتة، والطائفة المنصورة الناجية الَّتِي صنعها الله على عينه، وغرسها بيده، واستعملها بطاعته إلَى يوم القيامة؛ ليغيظ بِهم الكفار ... إن هذه الطائفة المختارة لا تُجاهد فِي سبيل قومها ولا نفسها أو وطنها ... بل فِي سبيل الله لتحقيق منهج الله، وتنفبذ شريعة الله ... ليس لأنفسهم حظ إنَّما هو لله وحده لا شريك له.

لذلك فهم لا يَخافون لومة لائم ... وفيم الخوف من لوم الناس وهم قد ضمنوا حبَّ ربِّ الناس؟!

ليتك تَحلو والحياةُ مريرةٌ وليتك ترضى والأنامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالَمين خرابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّن وكلُّ الذي فوق التراب تُراب

وفيم الوقوف عند مألوف الناس، وعُرف البشر، وهم يتبعون السنة، ويتجنبون الفتنة، ويبتغون العزة، ويعرضون منهج الله للحياة؟!

إنَّما يخشى الناس ولومَهم من يستمد مقاييسه وأحكامه وحركته من أهواء الناس، أما من يعود إلَى ميزان الله ليجعلها المسيطرة المحركة الدافعة لأهواء البشر وشهواتِهم وقيمهم فما يُبَالِي ما يقول الناس، وما يفعلون كائنًا هؤلاء الناس من كانوا، وكائنًا واقعهم ما كان.

ومن هنا لا تزال غراس الإسلام: الطائفة الناجية، والفرقة المنصورة، قائمة على أمر الله ودينه:

تنفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وتتسنَّم غارب العلم؛ لتذبَّ عن الحق براثن الشرك والخرافة.

وتَمتشق حُسامَ الحق لضرب أعناق البدع والأهواء، وبتر أنامل

الأعداء؛ ليبقى الدين صافيًا نقيًّا يتلألأ فِي ثوب الرسالة كما أنزل على نبي الله مُحَمَّد ﷺ.

إنَّها سمة المؤمنين المحبين لله ورسوله ... إنه الاطمئنان إلَى الله يَملأ قلوبَهم، ويحدوهم إلَى الجهاد فِي سبيل الله بكل أنواعه، وأشكاله، ودرجاته.

وإذا كان الأمر كما وصفته، وحالنا ما قدمته؛ فحق على المكلف أن يثبت حين يرى الكفار، متزودًا بالعدة الحقيقية للمعركة، وليأخذ بأسباب الثبات والنصر الموصولة بصاحب التدبير والتقدير، وصاحب المدد والعون، وصاحب القوة والسلطان: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال:٩-١٠].

وأما الثبات فهو مقدمة النصر، ورفيقه، وحارسه، لذلك فهو مطلوب من الفئة المؤمنة قبل المعركة، وأثناء القتال، وبعد النصر، ودونك البيان فِي ذكر طرقه وأسبابه.

❊ الثبات قبل المعركة:

على الفئة المسلمة أن تغالب الهزَّة الأولى الَّتِي قد تعتريهم أو تصيب بعضهم عند مواجهة الخطر الواقعي؛ فإن التمني غير اللقاء؛ فالأول دعاء،

والثاني موت أو بقاء.

قال ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٢-١٤٣].

ولذلك على الفئة المؤمنة المختارة أن تَمضي فِي طاعة أمر الله، واثقة من نصر الله، وتبتهل إلَى الله بأن يثبت أقدامها، وهذا منهج الأنبياء وأتباعهم قبل اللقاء، فقد حكاه القرآن الكريم فِي تاريخ الأمة المسلمة فِي موكب الإيْمان التاريخي، الذي يقوده الرُّسل وأتباعهم فِي مواجهة المعركة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٧].

وهو ما قاله سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبُهم للإيْمان، فواجههم فرعون بالتهديد المروع، البشع، الطاغي: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦].

وكذلك الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل الَّتي يسوسها طالوت

وهي تواجه جالوت وجنوده: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠].

ولقد استقر هذا المنهج في نفوس العصبة المسلمة، فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوًّا، وهو يؤدي وظائف شتى قبل لقاء العدوّ، إنه "اتصال" بالقوة الَّتي لا تغلب، والثقة بالله الذي ينصر أولياءه.

وهو "استحضار" لحقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ... فهي معركة في سبيل الله ... لتقرير ألوهيته في الأرض، وليكون الدين كله لله، وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا، لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء في الأرض والفساد.

ولذلك فهو "تجريد" للنفس من حظوظها في المعركة جُملة ... حتَّى الغنائم الَّتي تَخلفها المعركة فهي من فضل الله علينا أحلها لنا لما رأى ضعفنا وعوزنا.

❊ الثبات عند اللقاء وفي المعركة:

وفيه يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

إن المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته، وتدبيره وقدره، وتسير بجنده ... إن جو المعركة وملابساتها ومواقفها تنجلي بوضوح، وحركاتها وخطواتها تتمثل بجلاء ... حيث يتم المدد الروحي بالمدد المادي وتسكن القلوب في رحاب الله، وتطمئن الأرواح، فتثبت الأقدام تحت ظلال السيوف الَّتي امتشقها جُند الله ليكون الدين كله لله ... وهم يتقنون استعمالها، فهم أهلها ورجالها.

وفي تعليم الله ﷻ الملائكة فنون القتال وضروب النِّزال وحصد أعناق الأبطال: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. حيث وصف لَهم أبلغ ضربات العنق وأحكمها، وهي الضربة الَّتي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في المفصل، وينظر إلَى هذا المعنى قول دريد بن الصمة السلمي حين قال لقاتله: خذ سيفي، وارفع به عن العظم، واخفض عن الدِّماغ؛ فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال.

ومثله قول الشاعر:

جعلت السيف بين الجيد منه ... وبين أسيل خَدِّيه عذارا

وهنا يبلغ التقتيل أشده حَتَّى تتحطم قوة العدو وتتهاوى، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع، وعندئذ -لا قبله- يؤسر من استأسر، ويشد وثاقه، فأما والعدو ما يزال قويًّا فالإثخان والتقتيل يكون الهدف

لتحطيم ذلك الخطر: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [مُحَمَّد:٤].

وكذلك أمرهم بتعطيل البنان، فإنه إذا تعطل من المضروب لَم يستطع قتالاً بخلاف سائر الأعضاء.

قال عنترة:

وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها ... ويضربُ عند الكــرب كل بنان

أقول: فِي ذلك دلالة على أن إتقان أساليب الحرب، والرسوخ فِي فنون القتال من أعظم أسباب الثبات عند اللقاء؛ فتدبر.

❊ الثبات بعد النصر:

وفيه يقول ربنا ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد:٧].

قد يذهب ظن كثير من الناس أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ويكون سببًا فيه، وهذا صحيح، ولكن تأخير التثبيت فِي هذه الآية يومئ بأن المقصود معنًى آخر من معاني التثبيت: معنَى التثبيت على النصر وتكاليفه، فالنصر ليس نِهاية المعركة بين الكفر والإيْمان، وبين حزب الله والشيطان.

إن للنصر تكاليف فِي ذات النفس وفِي واقع الحياة.

للنصر تكاليفه فِي عدم الزُّهوِّ به والبَطر، وفِي عدم التراخي بعده والتهاون فِي أمر الله.

إن كثيرًا من النفوس قد تثبت على المحنة والبلاء، ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء ... أليس الابتلاء يكون بالضراء والسراء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

إن إصلاح القلوب وثباتَها على الحق بعد النصر والتمكين منْزلة أخرى وراء النصر، فهي الَّتِي تَحميه وتحرسه ... وليس هذا بدعًا من القول وزخرفًا من الآراء ... بل هو الحقيقة الَّتِي نطق بِها القرآن، ووصف بِها حزب الرحمن بعد التمكين فِي الأرض ورد كيد الكافرين.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

إن وعد الله المؤكَّد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو: أن ينصر الله من ينصره ... فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ... فيستحقون نصر الله القوي العزيز الذي لا يذل من تولاّه، ولا يغلب من عاداه، إنَّهم الذين إن حقق الله لَهم النصر وثبَّتَ لَهم الأمر:

- "أقاموا الصلاة"؛ فعبدوا الله، ووثقوا صلتهم به، واتجهوا إليه صاغرين خاضعين مستسلمين.

- "وآتوا الزكاة" تثبيتًا لأنفسهم؛ فتطهروا من الشحِّ، وبرءوا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدُّوا خلة عيال الله، وكفلوا الضِّعاف والمحاويج، صفة الجسم المؤمن الحي.

- "وأمروا بالمعروف"؛ فدعوا إلَى الخير والصلاح، ودفعوا الناس إليه.

- "ونَهوا عن المنكر": فقاوموا الشر والفساد.

إنه ثبات على المنهج بعد النصر والتمكين كما ثبتوا عليه من قبل وهم يلاقون أشد أنواع الابتلاء على يد الكافرين، فهؤلاء الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الثاني : الثبات في ميدان الدعوة إلى الله

إن أول خطوة فِي طريق الداعي إلَى الله على بصيرة هي: تَميزه وشعوره بالانعزال التام عن المنكر: تصورًا، ومنهجًا، وعملاً.

"**الانعزال**" الذي لا يسمح بالتقاء فِي منتصف الطريق.

"**والانفصال**" الذي يستحيل معه التعاون؛ إلا إذا انتقل أهل المنكر والشهوات بكليتهم إلَى الإسلام.

لا ترقيع ولا تَمييع مهما تزين المنكر بزي المعروف، أو ادَّعى هذا العنوان، أو تراقصت الشهوات ذات اليمين وذات الشمال.

وتَميز هذه الصورة فِي تفكير داعي الله هو حجر الأساس، تفكيره بأنه شيء آخر غير هؤلاء القطعان لَهم طريقهم وله طريقه، لا يَملك أن يسايرهم خطوة واحدة تُربت على شهواتِهم، ووظيفته أن يأخذ بأيديهم فِي طريقه هو بلا مهادنة، ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير.

إن هذا "التميز" وهذه المفاصلة" ذات بال؛ لتستبين معالِم الحق الذي يستحيل أن يلتقي معه باطل.

وهذه المفاصلة بِهذا الوضوح والرسوخ ضرورة للداعي إِلَى الله والمدعوين؛ لأن تصورات الباطل تتلبس بتصورات الإيْمان، وبخاصة لدى الجماعات والأفراد الذين عرفوا الإيْمان من قبل ثُمَّ انحرفوا عنه، وهذا الصنف من الناس أعصى على الإيْمان فِي صورته النقية من الغبش والالتواء والانحراف، أعصى من الذين لَم يعرفوا الإيْمان ابتداء.

ذلك أنَّها تظن بنفسها الهدى فِي الوقت الذي تتعقد فيه انحرافاتُها وتتلوى، إنَّها غابة المتعالمين المبتدعين حيث الهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، والدنيا المؤثرة: الَّتِي تطلب متاع الدنيا بعمل الآخرة.

إن خلط عقائدها وأعمالها الصالحة بالفاسدة، قد يغري الداعي نفسه بالأمل فِي اجتذابِها إذ أقر الجانب الصالح، وحاول تعديل الجانب الفاسد ... ولكنه مزلة قدم حيث تبدأ المساومة كما يفعلون بالتجارة، حيث يبدءون بإعطاء الداعي إشارات أن المسافة بينهم وبينه قريبة، يُمكن التفاهم عليها: بقسمة البلد بلدين، والالتقاء فِي منتصف الطريق، مع بعض الترضيات الشخصية.

وفرق بين الدين والتجارة كبير، فصاحب الحق لا يتخلى عن شيء منه؛ لأن الصغير كالكبير، ليس فِي الحق صغير أو كبير، إنه واحد لا يتعدد، لا يطع صاحبه فيه أحدًا، ولا يتخلى عن شيء منه أبدًا.

إن الهوَّة بين الحق والباطل لا تعبر، ولا يبنَى عليها جسر، ولا تقام عليها قنطرة، ولا تقبل القسمة أو صلة.

إن المسلم حاسم فِي موقفه من الدين لا يُدْهِنُ ولا يلين، وهو فيما عدا ذلك من ألين الخلق جانبًا، وأخفضهم جناحًا، وأحسنهم معاملة، وأبرهم بأهل وعشيرة، وأحرصهم على اليسر والتيسير، والبشرى والتبشير، وأما الدِّين فهو الدِّين؛ ففيه توجيه من رب العالمين الذي بين سبيل المجرمين وخطوات تفكيرهم، وغاية مسيرهم، واقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٨-٩].

وقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

وقول العليم الخبير: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

وتدبر قول الحق فِي البراءة من الشرك وأهله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

وتأمل المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ بصورة توضيحية للصحابة

ﷺ: «كنا جلوسًا عند النَّبي ﷺ؛ فخط خطًّا هكذا أمامه فقال: **هذا سبيل الله** ﷻ ، وخط خطًّا عن يَمينه، وخط خطًّا عن شِماله، وقال: **هذه سبيل الشيطان**. ثُمَّ وضع يده فِي الخط الأوسط، ثُمَّ تلا هذه الآية: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام:١٥٣]»(١).

وارجع النظر فِي تدبره لا تَجد بين سبيل الله وسبل الشيطان مَمرًا، ولا قنطرةً، ولا جسرًا!.

ولكن مُحاولات أصحاب السُّلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا ... مُحاولة إغرائهم لينحرفوا -ولو قليلاً- عن استقامة الدعوة وصلابتها فتزل قدم بعد ثبوتِها، ويرضوا بالحلول الوسط الَّتِي يغرونَهم بِها فِي مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوات من يفتن بِهذا عن دعوته؛ لأنه يراه هينًا ... فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ... إنَّما هي تعديلات طفيفة؛ ليلتقي الطرفان على أرضية مشتركة فِي منتصف الطريق ... فالقواسم المشتركة كثيرة -زعموا-، وقد يدخل الشيطان على حملة الدعوات من هذا الدهليز المظلم: فيتصورون أن خير

---

(١) **صحيح**: ورد من حديث جابر بن عبد الله، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس ﷺ.
وقد حققنا القول عليه فِي: "الجنة فِي تخريج السنة" لابن نصر المروزي (٥-٨).

دعوتِهم فِي كسب أصحاب السلطان إليها -وهو حق- لكن دون التنازل عن جانب منها.

ولكن الانحراف الطفيف فِي بداية الطريق يئول إلَى الانحراف الكلي فِي نِهاية المطاف، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم فِي جزء منها ولو يسير، وفِي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يَملك أن يقف عند ما سلَّم به أول مرة؛ لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلَى الوراء ... فالمنحدرات خطيرة!.

وأصحاب السلطان يستدرجون الدعاة، فإذا سلَّموا فِي جزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم؛ لأن التسليم فِي جانب ولو ضئيل من جانب الدعوة هو هزيمة إيْمانية بالاعتماد على أصحاب السلطان فِي نصرة الدعوة، فالله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتِهم، ومتى دبَّت الهزيمة فِي أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصرًا .. وحينئذ يعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلَى تسليم الصفقة كلها!.

لذلك امتن الله على رسوله ﷺ أن ثبته على ما أوحي إليه، وعصمه من فتنة المشركين، ووقاه الركون إليهم -ولو قليلاً- ورحمه من عاقبة الركون وهي: عذاب الدنيا والآخرة مضاعفًا، وفقدان المولى والنصير: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا

لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥].

ولذلك حذَّر الرسول ﷺ من إتيان السُّلطان الفاسق، أو الذي لا يحكم بِما أنزل الله، تقربًا منه، ومُجاملة له، وطمعًا فيما عنده من حطام الدنيا؛ فقال: «**من أتى السلطان افتتن**»(١).

وكتب سفيان الثوري إِلَى عبَّاد بن عبَّاد وصيته المشهورة، وكان فيها: "وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم فِي شيء من الأشياء، وإياك أن تخدع؛ فيقال لك: تشفع، وتدرأ عن مظلوم، أو ترد مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنَّما اتَّخذها فجار القراء سلمًا"(٢).

ولذلك قال ابن الجوزي -رحِمه الله-: "ومن تلبيس إبليس على

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٧/١٩٥-١٩٦)، وأحمد (١/٣٥٧) وغيرهم؛ من طريق سفيان عن أبِي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس.
وإسناده ضعيف، لأن أبا موسى مَجهول.
ولكن له إسناد آخر عند البيهقي فِي "شعب الإيْمان" (٣/٢/٢٤٨)؛ فبه يتقوى -إن شاء الله-.
وله شاهدان خرجتهما فِي "الرِّياء ذمه وأثره السيئ فِي الأمة" (ص٣٤).
وبِهما يصح الحديث، والحمد لله.

(٢) وهي وصية جامعة نافعة مانعة؛ انظرها مُخرجة فِي كتابِي: "**من وصايا السلف**".

الفقهاء مخالطتهم الأمراء والسلاطين، ومداهنتهم، وترك الإنكار عليهم، مع القدرة على ذلك.

وربَّما رخصوا لَهم فيما لا رخصة لَهم فيه؛ لينالوا من دنياهم عرضًا؛ فيقع بذلك الفساد؛ لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير؛ يقول: لولا أنِّي على صواب، لأنكر علي الفقيه، وكيف لا أكون مصيبًا وهو ينهل من مالِي؟!

الثاني: العامي؛ أنه يقول: لا بأس بِهذا الأمير، ولا بِماله، ولا بأفعاله؛ فإن فلانًا الفقيه لا يبرح عنده.

الثالث: الفقيه؛ فإنه يفسد دينه بذلك.

وقد لبس إبلِيس عليهم فِي الدخول على السلطان؛ فيقول: إنَّما ندخل لنشفع فِي مسلم، وينكشف هذا التلبيس بأنه لو دخل غيره يشفع؛ لما أعجبه ذلك، وربَّما قدح فِي ذلك الشخص؛ لتفرده بالسلطان.

وفِي الجملة، فالدخول على السلاطين خطر عظيم؛ لأن النية قد تحسُن فِي أوَّل الدخول، ثُمَّ تتغير بإكرامهم وإنعامهم، أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم، وترك الإنكار عليهم.

وقد كان سُفيان الثوري ﷺ يقول: "ما أخاف من إهانتهم لي، إنَّما أخاف من إكرامهم لي، فيميل قلبِي إليهم"[١].اهـ.

وقال الحافظ بن رجب الحنبلي -رحِمه الله-: "وقد كان كثير من السلف ينهون عن الدخول على الملوك لمن أراد أمرهم بالمعروف ونَهيهم عن المنكر أيضًا".

وممن نَهى عن ذلك: عمر بن عبد العزيز، وابن المبارك، والثوري وغيرهم.

وقال ابن المبارك: "ليس الآمر الناهي عندنا من دخل عليهم، فأمرهم ونَهاهم، إنَّما الآمر الناهي من اعتزلَهم".

وسبب هذا ما يخشى من فتنة الدخول عليهم، فإن النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيدًا أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم قريبًا مالت النفس إليهم؛ لأن مَحبة الشرف كامنة فِي النفس له، ولذلك يداهنهم ويلاطفهم، وربَّما مال إليهم وأحبهم، ولاسيما إن لاطفوه، وأكرموه، وقبل ذلك منهم.

وقد جرى ذلك لعبد الله بن طاوس مع بعض الأمراء بحضرة أبيه

---

(١) "تلبيس إبليس" (ص١٢١-١٢٢).

طاوس، فوبَّخه طاوس على فعله ذلك.

وكتب سفيان الثوري إلَى عبَّاد بن عباد، وكان فِي كتابه: "إياك والأمراء أن تدنو منهم، أو تُخالطهم فِي شيء من الأشياء ... إلخ"[1] اهـ.

وقال علامة الأندلس ابن عبد البر -رحِمه الله- خاتِمًا الباب الذي ذكر فيه ذم السلف للدخول على الأمراء والسلاطين:

"معنَى هذا الباب كله فِي السلطان الجائر الفاسق، فأما العدل منهم الفاضل؛ فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز إنَّما كان يصحبه جلَّة العلماء؛ مثل عروة بن الزبير وطبقته، وابن شهاب وطبقته.

وقد كان ابن شهاب يدخل إلَى السلطان عبد الملك وبنيه بعده.

وكان ممن يدخل على السُّلطان: الشعبي، وقبيصة، وابن ذؤيب، ورجاء بن حيوة الكندي، وأبو المقدام -وكان عالِمًا فاضلاً- والحسن، وأبو الزناد، ومالك بن أنس، والأوزاعي، والشافعي، وجَماعة يطول ذكرهم.

وإذا حضر العالم عند السلطان غبَّا فيما فيه الحاجة، وقال خيرًا،

---

(١) "شرح حديث ما ذئبان جائعان" (ص٥٢-٥٣).

ونطق بالعلم؛ كان حسنًا، وكان فِي ذلك رضوان الله إِلَى يوم يلقاه، ولكنها مَجالس الفتنة فيها أغلب، والسلامة منها ترك ما فيها"(١)اهـ.

وقد اتَّخذ الدخول على السلطان والرُّكون للذين ظلموا أُطرًا جديدة، وتزيا بلبوس مزخرف تحت اسم: "الديمقراطية"، و"التعددية السياسية"، و"الحملات الانتخابية"، و"التأثيرات البرلمانية"، حيث يزعم المفتونون بالديمقراطية، الغافلون عن أساليبها الرَّدية:

أنَّهم يُحاولون التأثير على مَجرى السياسة من داخل البرلمانات ... ليوصلوا صوت الإسلام الذي أحرزته الانتخابات من داخل الأجهزة الرسمية الَّتِي تُسيِّر حياة الناس، حَتَّى يكون لِهذا الصوت وقع فِي حسِّ الناس.

قال الأستاذ مُحَمَّد قطب: ".... نناقش الشيوخ المتعجلين، الذين يظنون أنَّهم يُحركون العمل الإسلامي بولوج هذا الطريق غير المسدود، ويصلون عن طريقه إِلَى تحقيق الأمل المنشود ... نقول لَهم: إن استخدام هذا الطريق عبث لا يؤدي إِلَى نتيجة قبل تكوُّن "القاعدة المسلمة" ذات الحجم المعقول، ولنفرض جدلاً أننا توصلنا إِلَى تشكيل برلمان مسلم مائة فِي المائة... كل أعضائه يطالبون بتحكيم شريعة الله! فماذا يستطيع هذا

(١) "جامع بيان العلم وفضله" (١/١٨٥-١٨٦).

البرلمان أن يصنع بدون "القاعدة المسلمة" الَّتِي تسند قيام الحكم الإسلامي، ثُمَّ تسند استمراره فِي الوجود بعد قيامه[١].

إنه تفكير ساذج رغم كل ما يقدم له من المبررات[٢]... وفوق ذلك فهو يَحتوي على مزالق خطيرة تصيب الدعوة فِي الصميم، وتعوقها كثيرًا على الرغم مِمَّا يبدو -لأول وهلة- من أنَّها تُمكن لَها فِي التربة، وتعجل لَها الخطوات!.

❊ المزلق الأول: هو المزلق العقيدي:

فكيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلَى شريعة الله وحدها دون سواها، والذي يقول له دينه: إن كل حكم غير حكم الله

---

(١) هذا الفرض لن يُسوِّغ الغرض بل هو الداء والمرض:

أ- إن تكوين برلمان مسلم مائة فِي المائة؛ يعني: أن القاعدة الإسلامية الَّتِي تريد الحكم الإسلامي وتسنده موجودة.

ب- إن النجاح الباهر الذي يُحققه الإسلاميِّون فِي الانتخابات مؤشر لدعاة الباطل أن ينقضُّوا عليهم ويحصدوهم ... وسيقوم دعاة الديمقراطية بإلغاء النتائج، وإعلان حالة الطوارئ وحل تلك الجماعات الإسلامية الَّتِي قامت بإذن وترخيص منهم ... وما الأحداث الَّتِي عصفت بِمسلمي الجزائر عن القارئ ببعيدة.

وعلى الجملة: فالديمقراطية ملهاة الشعوب، وخطة إبليس، وقد بيَّنت بطلانها وخطورتَها فِي كتابي: "مناهج الجماعات الإسلامية فِي التغيير دراسة وتقويْمًا".

(٢) هكذا فِي الأصل، والصواب أن يقول: المسوِّغات.

هو حكم جاهلي، لا يجوز قبوله، ولا الرضا عنه، ولا المشاركة فيه ... كيف يجوز له أن يشارك فِي المجلس الذي يشرع بغير ما أنزل الله، ويعلن بسلوكه العملي -فِي كل مناسبة- أنه يرفض التحاكم إلَى شريعة الله؟!.

كيف يجوز له أن يشارك فيه، فضلاً عن أن يقسم يَمين الولاء له، ويتعهد بالمحافظة عليه، وعلى الدستور؛ الذي ينبثق عنه، والله يقول سبحانه: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ [النساء: ١٤٠].

وهؤلاء حديثهم الدائم هو مُخالفة شريعة الله، والإعراض عنها؛ ولا حديث لَهم غيره ينتظره المنتظر حَتَّى يخوضوا فيه! ... فكيف إذن يقعد معهم؟!

كل ما يقال من مبررات: أننا نسمعهم صوت الإسلام ... إننا نعلن رفضنا المستمر للتشريع بغير ما أنزل الله ... أننا نتكلم من المنبر الرسمي؛ فندعو إلَى تحكيم شريعة الله كل ذلك لا يبرر تلك المخالفة العقيدية الواضحة.

يقولون: ألَم يكن النَّبِي ﷺ يذهب إلَى قريش فِي ندوتِها ليبلغها كلام الله؟!.

بلى؛ كان يذهب إليهم فِي ندوتِهم لينذرهم... ولكنه لَم يكن يشاركهم فِي ندوتِهم!.

ولو أن مسلمًا يدعو إلَى تَحكيم شريعة الله، استطاع أن يذهب إلَى ندوة الجاهلية المعاصرة، ويسمح له بالكلام فيها كما كانت تسمح الجاهلية الأولى لرسول الله ﷺ، لكان واجبًا عليه أن يذهب وأن يبلغ، لأنه فِي هذه الحالة لا يكون "عضوًا" فِي الندوة، إنَّما هو "داعية" من خارجها، جاء يدعو إلَى اتباع ما أنزل الله، فلا الندوة تعتبره منها، ولا هو يعتبر نفسه من الندوة ... إنَّما هو "مبلغ" جاء يلقي كلمته ثُمَّ يَمضي.

أما المشاركة فِي "عضوية" الندوة بحجة إتاحة الفرصة لتبليغها كلمة الحق، فأمر ليس له سند من دين الله!.

*** والمزلق الثاني: هو تَمييع القضية بالنسبة "للجماهير":**

إننا نقول للجماهير فِي كل مناسبة: إن الحكم بغير ما أنزل الله باطل، وإنه لا شرعية إلا للحكم الذي يَحكم بشريعة الله ... ثُمَّ تنظر الجماهير فترانا قد شاركنا فيما ندعوها هي لعدم المشاركة فيه! فكيف تكون النتيجة ؟!

وإذا كنا نَحن نَجد لأنفسنا المبررات للمشاركة فِي النظام الذي

نعلن للناس أنه باطل، فكيف نتوقع من الجماهير أن تَمتنع عن المشاركة؟! وكيف تنشأ "القاعدة الإسلامية" الَّتي يقوم عليها الحكم الإسلامي؟! القاعدة الَّتي ترفض المشاركة فِي كل حكم غير حكم الله! إننا نَحسب أننا بدخولنا البرلمانات، نقوم "بعمل" ييسر قيام "القاعدة الإسلامية"، لأنه يدعو إليها من فوق المنبر الرسمي، الذي له عند الناس رنين مسموع، ولكنا فِي الحقيقة نعوق قيام هذه القاعدة بِهذا التمييع الذي نصنعه فِي قضية الحكم بِما أنزل الله ... فلا يعود عند الجماهير تصور واضح للسلوك "الإسلامي" الواجب فِي هذه الشئون... ولن تتكون القاعدة بالحجم المطلوب لقيام الحكم الإسلامي حَتَّى ينضج وعي الجماهير، وتعلم علم اليقين أن عليها -عقيدة- أن تسعى لإقامة الحكم الإسلامي وحده دون أي حكم سواه، وألا تقبل وجود حكم غير حكم الله.

❊ والمزلق الثالث: لعبة "الدبلوماسية":

كما أثبتت تَجارب القرون كلها أن الدبلوماسية لعبة يأكل القوي فيها الضعيف، ولا يتاح للضعيف من خلالِها أن "يغافل" القوي فينتزع من يده شيئًا من السلطان! والقوة والضعف -فِي لعبة الدبلوماسية- لا علاقة لَها بالحق والباطل! ولا علاقة لَها بالكثرة والقلة! فالأقلية المنبوذة

من الشعب، المكروهة منه، الَّتي تسندها فِي الداخل القوة العسكرية، وتسندها من الخارج إحدى القوى الشيطانية الموجودة اليوم فِي الأرض هي القوية، ولو لَم يكن لَها أنصار ... والأكثرية المسحوقة المستضعفة هي الضعيفة، ولو كانت تمثل أكثرية السكان! ومن ثُمَّ فالجماعات الإسلامية -الداخلة فِي التنظيمات السياسية لأعداء الإسلام- هي الخاسرة فِي لعبة الدبلوماسية، والأعداء هم الكاسبون:

سواء بتنظيف سمعتهم أمام الجماهير، بتعاون الجماعات الإسلامية معهم.

أو تحالفها معهم.

أو اشتراكها معهم فِي أي أمر من الأمور.

أو بتمييع قضية الإسلاميين فِي نظر الجماهير، وزوال تفردهم وتَميزهم الذي كان لَهم يوم أن كانوا يقفون متميزين فِي الساحة، لا يشاركون فِي جاهلية السياسة من حولِهم، ويعرف الناس عنهم أنَّهم أصحاب قضية أعلى وأشرف وأعظم من كل التشكيلات السياسية الأخرى، الَّتي تريد الحياة الدنيا وحدها، وتتصارع وتتكالب على متاع الأرض ... ولا تعرف فِي سياستها الأخلاق الإسلامية، ولا المعاني الإسلامية ... فضلاً عن مناداتِها بالشعارات الجاهلية، وإعراضها عن

تحكيم شريعة الله.

ولَم يحدث مرة واحدة فِي لعبة الدبلوماسية أن استطاع المستضعفون أن يديروا دفة الأمور من داخل التنظيمات السياسية الَّتِي يديرها أعداؤهم؛ لأن "الترس" الواحد لا يتحكم فِي دوران العجلة، ولكن العجلة الدائرة هي الَّتِي تتحكم فِي "الترس"! وما يحدث من "إصلاحيات" جزئية عارضة فِي بعض نواحي الحياة على يد "الإسلاميين" لا تطيقه الجاهلية ولا تصبر عليه، وسرعان ما تَمحوه مَحوًا وتبطل آثاره[1]... وتظل الآثار السيئة الَّتِي ينشئها تَمييع القضية باقية لا تزول، وشرُّها أكبر بكثير من النفع الجزئي الذي يتحقق بِهذه المشاركة، حَتَّى لكأنَّما

(١) وهذا ما رأيناه رأي العين فِي "بلد" أراد "نظامه" أن يغطي "سوأته"، ويصلح ما أفسده الدهر؛ فاستخف "مواطنيه" بِملهاة الديمقراطية؛ فأطاعوه، وتساقطت "بعض" الجماعات الإسلامية فِي حبائلها غير المرئية، ونجح بعض مرشحيهم بنسبة عليَّة، ثُمَّ استدرجوا إلَى المشاركة "الوزاريَّة"، ولكنها عجفاء لا تنقي فلم يتمكنوا من الأمور الداخلية أو الخارجية، وعلى الرغم من ذلك فعندما حاولوا إصلاح ما تولوا أمره -والله يعلم إنَّها إصلاحات شكلية-، احمرَّت أنوف العصبة الردية، الَّتِي أرادت استهلاك القضية الإسلامية ... فقلبوا لَهم ظهر الْمِجَن، وهم يبيتون لَهم ولدعاة الإسلام جَميعًا ما لا يرضي الله من المحن.

هذا هو تَمام الحكاية، نسأل الله العفو والعافية، والسلامة من الفتن: ما ظهر منها وما بطن.

ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

أما توهم من يتصور أن الجاهلية تظل غافلة حَتَّى يتسلل الإسلاميون إلَى مراكز السلطة، ثُمَّ -على حين غفلة من أهلها- ينتزعون السلطة ويقيمون الحكم الإسلامي، فوصفه بالسذاجة قد لا يكفي لتصويره! وتَجربة السُّودان تكفي[١] -فما أعتقد- لإبطال هذا الوهم- إن كان له وجود حقيقي فِي ذهن من الأذهان"[٢].

❊ الثالث: الثبات عند المصيبة:

لابد من تربية النفوس فِي البلاء؛ لتبقى مشدودة الأعصاب، مُجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج... ولابد من الصبر فِي هذا كله.

---

(١) عجبت من حالهم فِي حلّهم وترحالهم، كيف يظنون ذلك، والجاهلية هي الَّتِي فتحت لَهم بوابة الدخول بطرائق تحير الألباب، وتذهب العقول؟ وتَجربة الجزائر لَم يزل الإسلاميون يكتوون بنارها!

(٢) "واقعنا المعاصر" (ص٤٦٢-٤٦٦) بتصرف.

تنبيه: لقد أوردنا هذه الشهادة من كتاب "واقعنا المعاصر" للاحتجاج على معظميه الذين غرقوا حَتَّى مفرق رءوسهم فيما حذر منه ونَهى عنه، وذلك على قاعدة: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦].

والكتاب فيه عثرات عقيدية كثيرة، ومزالق منهجية خطيرة، وقد بينتها فِي رسالة مفردة سميتها: "**عقد الخناصر فِي رد على أباطيل واقعنا المعاصر**".

ولابد من البلاء؛ ليصلب عود المؤمن، ويقوى ساعده، فالشدائد تستجيش مكنون النفس، وتفتح فِي القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن فِي نفسه إلا تحت مطارق البلاء والابتلاء.

والأهم من ذلك كله: الالتجاء إِلَى الله وحده حين تَهتزُّ الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إِلَى الله وحده، لا يَجد سندًا إلا سنده، ولا عونًا إلا مدده، وفِي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات وهي طبقات، وتتفتح البصيرة وتنقشع عنها الظلمات ... لا قوة إلا بالله، ولا حول إلا حوله، ولا ملجأ منه إلا إليه.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

إنا لله كلنا.... كل ما فينا ولنا... كل كياننا وما نَملك لله... الذي إليه المرجع والمآب فِي كل أمر... وفِي كل مصير.

هؤلاء هم الصابرون فِي البأساء والضراء ... الذين لَهم البشرى ... وبشر الصابرين[١].

---

(١) يراجع هذا الباب بأحكامه وأبوابه وأسبابه وتفاصيله فِي كتابي: "**الصبر الجميل فِي ضوء** =

❊ الرابع: الثبات عند الممات(١):

قال ابن الجوزي -رحِمه الله-: "الحمد لله الذي أحسن إلَي من وهب له أحسن مخلوقاته وهو: العقل؛ وجعل التجارب تزيده حسنًا كما يُحسن المصقول بالصقل، وصلى الله على مثقفه بِما صار عنه من النقل، صلاة تعم معه جَميع الأنبياء وتابعيهم عموم المُتماقلين خير المقل وسلَّم.

أما بعد: فإنِّي رأيت جَميع الناس ينْزعجون لِنُزول البلاء انزعاجًا يزيد عن الحدِّ، كأنَّهم ما علموا أن الدنيا على ذلك وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السقمْ، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم؟!

على ذا مضى الناس: اجتماع وفرقة، وميت ومولود، وقال ووامق.

ولعمري إن أصل الانزعاج لا ينكر، إذ الطبع مَجبول على الجزع من طول المنافي، وإنَّما ينكر الإفراط والتكلف، كمن يخرق ثوبه، ويلبس الثياب المرذولة عند موت قريبه، ويلطم وجهه، ويعترض على القدر، فإن هذا لا يرد فائتًا، لكنه يدل على خور الجازع، ويوجب العقوبة.

ولما كان فراق المحبوب من أعظم الشدائد، وأعظم منه نزول المرض

=

الكتاب والسنة"، و"**عدة الصابرين وذخير الشاكرين**" للإمام ابن قيم الجوزية، بتحقيقي.

(١) هذا الباب مُختصر من كتاب "**الثبات عند الممات**" لابن الجوزي -رحِمه الله-.

بالإنسان، وأقوى من الكل حلول الموت به، افتقر إلَى ما يثبت انزعاجه فِي تلك الأحوال.

❊ بيان فضيلة العقل والنقل ولزوم القبول منهما:

قد ثبت أن العقل هو الآلة الَّتِي عرف بِها الإله، وحصل به تصديق الرسل والتزام الشرائع، وأنه الْمحرِّض على طلب الفضائل، والْمخوِّف من ركوب الرذائل، والناظر فِي المصالح والعواقب، فهو مدبر أمر الدارين، ومثله كالضوء فِي الظلمة، فقد يقل عند أقوام فيكون كعين الأعشى، ويزيد فيكون كنور القبس، ويكون عند قوم كضوء الشمعة، وعند الكاملين كطلوع الشمس على عين زرقاء اليمامة.

ولِهذا يتفاوت العقلاء فِي العلوم والأعمال، فينبغي لمن رزق العقل أن لا يخالفه، ولا يخلد إلَى ضده وهو: الهوى، فمتى مال إلَى الهوى صيَّر الإمام مأمومًا، وذلك لا يحسن.

فأما النقل لما نظر فِي معجزات الرسل -صلوات الله عليهم- صدقهم، وعلم إنَّما أتوا بِما أتوا به عن الخالق سبحانه، فقولهم معصوم عن خطأ، محفوظ عن غلط.

وإذ قد بان فضل العقل وشرف النقل لزم القبول منهما، اتفاق

العقل والنقل أن الدنيا دار بلاء فينبغي أن لا ينكر فيها وقوع البلاء.

من استخبر العقل والنقل عن وضع الدنيا، أخبراه أنَّها مارستان بلاء، فلا ينكر وقوع البلاء بِها، وليس فيها لذة على الحقيقة، إنَّما لذتُها راحة من مؤلِم، وإنَّما المراد من الأكل إقامة خلف المتحلِّل، ثُمَّ كم فيه من مَحذور، فإن الإكثار يوجب التخمة، ومن المطاعم مؤذٍ بالإسهال أو بالإمساك، ومنها ما يقوي بعض الأخلاط، وإنَّما جعلت اللذة فِي التناول كالبِرْطيل.

وكذلك الوطء؛ فإن المراد منه إقامة الخلف، وكم فِي ضمنه من أذى، أقله قلة القوى، وتعب الكسب، ومقاسات أخلاق المعاملة.

ومتى حصل محبوب، كان نغصه تربى على لذاته، ويا سرعان ذهابه، مع قبح ما يَجنِي، وأقل آفاته الفراق الذي ينكب الفؤاد، ويذيب الأجساد.

وكل ما يظن من الدنيا: سراب، وعمارتُها وإن حسنت صورتُها: خراب، ومَجيئها إلَى مجيبها: ذهاب، ومن خاض الماء الغمر، لَم يَجزع من بلل، كما أن من دخل بين الصفين لَم يخل من وجل.

والعجب لمن يَدُه فِي سلَّة الأفاعي، كيف يُنكر اللَّسع، وأعجب منه

من يطلب من المطبوع على الضر التَّمتُّع، وما أحسن قول الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذار والأكدارِ

ومكلّف الأيام ضدَّ طباعها ... متطلب فِي الْمَاء جذوة نارِ

وإذا رجوت الْمُستحيل فإنَّما ... تَبني الرجاء على شفير هارِ

ولولا أن الدنيا دار ابتلاء، لَم تعتور الأمراض والأكدار، ولَم يضيق العيش على الأنبياء والأخيار، ولقد لزق بِهم البلاء، وعدموا الراحة.

فآدم يعانِي المحن إلَى أن خرج من الدنيا، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب يبكي حَتَّى ذهب البصر، وموسى يقاسي فرعون، ويلقى من قومه المحن، وعيسى لا مأوى له إلا البر فِي العيش الضنك، ومحمد ﷺ يصابر الفقر، وقذف الزوجة، وقتل من يُحبه.

ولو خلقت الدنيا للذة، لَم يبخس حظ المؤمن منها، فإن الجمل يأكل أكثر منه، والعصفور يسافد أكثر منه، وقد قال النَّبِي ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[1].

وإذا بان أنَّها دار ابتلاء وسجن ومحن، فلا ينبغي أن يقع جزع من البلوى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصاب بالمحبوب من الأهل

المرء يصاب مضائب لا تنقضي حَتَّى يوارى جسمه فِي رمسه

فمُؤَجَّل يَلْقى الرَّدى فِي غيره ومعجل يلقى الردى فِي نفسه

❊ وعلاج فقد المحبوب أشياء:

أحدها: أن يعلم أن القدر قد سبق بذلك.

قال الله ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢].

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

والمعنى: أن المصائب مقدرة، لا أنَّها وقعت على وجه الاتفاق كما يقول الطباعيون، ولا أنَّها عبث، بل هي صادرة عمَّن صدرت عنه مُحكمات الأمور، ومتقنات الأعمال، وإذا كانت صادرة عن تدبير حكيم لا يعبث، إما لزجر عن فساد، أو لتحصيل أجر، أو لعقوبة على ذنب؛ وقع التسلي بذلك.

الثانِي: العلم بأن الدنيا دار الابتلاء والكرب، لا يرجى منها راحة:

وما استغربت عينِي فرقًا رأيته ولا أعلمتنِي غير ما القلب عالمه

والثالث: العلم بأن الجزع مصيبة ثانية.

والرابع: أن يقدر وجود ما هو أكبر من تلك المصيبة كمن له ولدان ذهب أحدهما.

والخامس: النظر فِي حال من ابتُلي بِمثل هذا البلاء؛ فإن التأسي راحة عظيمة، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولِي على إخوانِهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزى النفس عنه بالتأســـي

السادس: النظر فِي حال من ابتلي بأكثر من هذا البلاء؛ فيهون هذا.

والسابع: رجاء الخلف، إن كان من معنًى يصلح عنه الخلف كالولد والزوجة.

هل وصل غرَّة إلا وصل غانية فِي وصل غانية من وصلها خَلَف

والثامن: طلب الأجر بِحمل أعباء الصبر.

فلينظر فِي فضائل الصبر، وثواب الصابرين، وسيرتِهم فِي صبرهم، وإن ترقى إلَى مقام الرضا فهو الغاية[١].

والتاسع: أن يعلم أنه كيف جرى القضاء فهو خير له، قال رسول الله ﷺ: «**عجبت من قضاء الله ﷻ للمؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له**»[٢].

العاشر: أن تشديد البلاء يَختص بالأخيار.

عن سعد: قلت: «يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: **الأنبياء، ثُمَّ الصالحون، ثُمَّ الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فِي دينه صلابة زيد فِي بلائه، وإن كان فِي دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حَتَّى يَمشي على ظهر الأرض، وليس عليه خطيئة**»[٣].

الحادي عشر: أن يعلم أنه مملوك، وليس فِي نفسه شيء.

قال الشاعر الماهر الباهر:

صــرت لَهــم عبــدًا ... مــا للعبــد أن يعتــرض

---

(١) وانظر لزامًا كتابِي: "**الصبر الجميل**"، و"**حلاوة الإيْمان**".

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) صحيح؛ كما بينته فِي كتابِي: "**الصبر الجميل**".

والثانِي عشر: أن يذكر عظمة المبتلي وعزَّ القاتل.

ثُمَّ يقدر أنه لا يَملك نفسه، فيقول: يا نفس، أنسيت أن الله اشتراك، فإن كنت رضيت البيع فما لك فيك شيء؟

قال أبو الوفاء بن عقيل: مات ولدي عقيل وكان قد تفقه وناظر وجَمع أدبًا حسنًا، فتعزيت بقصة عمرو بن عبد ود الذي قتله علي فقالت أمه ترثيه:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... ما زلت أبكي عليه دائم الأبد

لكـــن قاتله لا يُعـــاب بـــه ... من كان يدعى أبوه بيضة البلد

فأسلاها وعزاها جلالة القاتل الافتخار بأن ابنها مقتول له، فنظرت إلَى أن القاتل ولدي المالك الحكيم، فهان القتل والمقتول لجلالة القاتل.

والثالث عشر: أن يعلم أن هذا الواقع، وقع برضا المالك وإرادته، فيجب أن يقع الرضا بِما رضي به المالك.

والرابع عشر: أن يعاتب نفسه إذا جزعت، فيقول لَها: أما علمت أن هذا لابدَّ منه؛ فما وجه الجزع مِمَّا لابدَّ منه؟

والخامس عشر: أن يقول لنفسه: إنَّما هي ساعة ثُمَّ كأن لَم يكن ما كان، وليتذكر أمراضًا جرت عليه، فبالغت فِي ألمه ثُمَّ ذهبت كأن لَم

يكن، وإنَّما الاعتبار بالعواقب، ومن تأمل العاقبة هان عليه البلاء.

قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار؛ فيصبغ فِي النار صبغة، ثُمَّ يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب.**

ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فِي الدنيا من أهل الجنة؛ فيصبغ فِي الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدَّة قط»[1].

والسادس عشر: أن يتخايل الانتقال إلَى نعيم الجنة الذي لا انقطاع له، فما قدر تلك اللحظة؟ بل ما قدر جَميع عمر الدنيا بالإضافة إلَى البقاء السرمدي.

وبين هذا بأن لو قدرنا أن الله ﷻ كبس السموات والأرض وما بينهما بِخردل، ثُمَّ خلق طائرًا واحدًا، وأمره أن ينقل كل ألف ألف عام خردلة، تصور نفاد ذلك! وبقاء أهل الجنة لا نفاد له.

ومن تخايل البقاء السرمدي، وأنه باق فِي النعيم السرمدي، ببقاء الخالق سبحانه، وبقاؤه لا ينقطع، طاش فرحًا، ونسي كل ألَم، وإذا كان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

الموت هو الطريق إلَى ذلك النعيم؛ هان.

قال رسول الله ﷺ: «**ينادى أهل الجنة: إن لكم أن تَحيوا فلا تَموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تَهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا**»(١).

والسابع عشر: أن يحتقر ما يبذل من الصبر بالإضافة إلَى عظمة الحق، فيكون كمحتقر هدية إلَى ملك كبير.

وليعلم أن هذا الصبر والتماسك، إنَّما هو ساعة من الزمان أو نَحوها، ثُمَّ يغيب الذهن فلا تحس بألَم، وينبغي أن يشجع نفسه ويقول: إنَّما هي ساعة ثُمَّ يتلقى كل موجة من البلاء بشيء مِمَّا ذكرناه، فإذا غرق الحسُّ بِموج، لا يتدارك غدر الملاح.

واعلم أن من حفظ أوامر الله ﷻ فِي صحته، حفظه الله فِي شدته، قال ﷺ: «**احفظ الله يَحفظك، احفظ الله تَجده أمامك، تعرف إلَى الله فِي الرخاء يعرفك فِي الشدة**»(٢).

ألا ترى أن يونس عليه السلام لما وقع فِي تلك الشدة، وكانت له أعمال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).

(٢) صحيح: كما بينته فِي "صحيح كتاب الأذكار وضعيفه" (١٢٦٨/١٠٠٠)

صالحة متقدمة، أخذت بيده فنجا، ولما لَم يكن لفرعون عمل خير لَم يَجد متعلقًا وقت الشدة، فقيل له: آلآن.

وقد يعرض إبليس للمريض والمحتضر فيؤذيه فِي دينه ودنياه.

وقد يستولي على الإنسان حينئذ فيضله فِي اعتقاده، وربَّما حال بينه وبين التوبة، وربَّما منعه من الخروج من مظلمة، أو آيسه من رحمة الله، ويقول له: قد أقبلت إليك سكرات الموت لا تطيقها الجبال، ونزع شديد، وقد كان أن يرفق بك ربك، فما فائدة هذا التعذيب؛ وستفارق المحبوبات، وسيبلى هذا البدن، ثُمَّ لا يدري أين المصير، فيقع بِهذه الوساوس القلق، وربَّما جاء الاعتراض على القدر.

فينبغي للمؤمن أن يعلم أن تلك الساعة هي مصدوقة الحرب وحين يحمى الوطيس؛ فينبغي أن يتجلد ويستعين بالله على العدو، ليرجع عنه خائبًا.

وينبغي للمؤمن أن يجيب الشيطان عن كل شيء قاله بجواب فيقول له:

أولاً: قد علمت ما فعلت بأبِي، وعرفت عداوتك لِي، فما وجه هذا الإشفاق علي؟

ثُمَّ يُجدد التوبة وينظر فيما يوصي به، ويخرج عن المظالِم، ويقضي

الديون، ويقول للشيطان لا وجه لليأس من رحْمة الله.

وأما ألَم السكرات؛ فجوابه من ستة أوجه:

أحدها: أنني ربَّما عوفيت من هذا المرض، وكم من مريض هو أشد من هذا تعقبه العافية؟ وقد عاش فلان وفلان أكثر مني وما آيس!.

والثاني: لَم تعجل لي الفكرة فِي الشدة، والفكرة فيها شدة أخرى، وقد قال الحكماء: "دعوا الفكرة لتموتوا مرة واحدة لا مرات".

والثالث: أنه ربَّما رفق بِي فِي تلك السكرات، وقد يكون فِي طي الإعساف إسعاف.

والرابع: قد دان الأمر كما قلت، أينفعنِي الجزع؟

والخامس: إن ما لابد منه لابد منه، وقد عشت أكثر من فلان وفلان.

والسادس: أنه كلما زادت الشدة زاد الأجر.

وأما قول إبليس: "ما وجه هذا التعذيب، وهو قادر على اللطف"؟.

❊ **فجوابه من وجهين**[1]:

أحدهُما: أن هذا الاعتراض على المالك، وأفعاله سبحانه لا تعلل،

---

(١) وانظر لزامًا: "**حجة إبليس**" لابن قيم الجوزية، بتحقيقي.

وفرض العقل أن يسلم، فإنه امتحن الأبدان بالأعمال الشاقة، وابتلى العقول بِما لا تَفهمه؛ ليسلِّم: مثل إيلام الحيوان، ورجم الزانِي، وغير ذلك.

فيبغي أن يلاحظ عظمة المتصرف، ويعلم كمال حكمته، وذلك يوجب الاستطراح لقضائه، والتسليم لأمره، ويلزمه أن يستحق ما يفعله الحق، لعلمه بكمال الحكمة.

والعقل ضرب من العلوم الضرورية؛ فحده إدراك المعلومات، وليس من ضرورته أن يدرك الحسن والقبيح[1]، كما أنه ليس فِي قوة الحواس المدركة للأشياء من المطاعم والمشارب أن يعلم مضارها ومنافعها.

فالاعتراض عليه من أقبح الأحوال، وإنَّما يعترض من يقيس صفته بصفات المخلوقين.

مثاله: أن يسمع أنه أرحم الرَّاحمين؛ فيطلب الرحْمة الَّتِي يجدها من المخلوقين؛ فيراه قد سلط الأعداء على الأولياء، والجوارح على الصيد؛ فيظن عدم الرحْمة؛ فيكفر.

---

(١) هذه العبارة فيها أشعرية. وانظر لزامًا: "درء تعارض العقل مع النقل" (٢/٤٩٢-٤٩٤) و"مجموع الفتاوى" (١١/٦٧٦-٦٧٧) لشيخ الإسلام بن تيمية، و"مفتاح دار السعادة" (٢/٥) "شفاء العليل" (ص٤٣٥) لابن قيم الجوزية.

فسلِّم لأوصافه؛ كما سلَّمت لذاته، فهو أهل أن يسلَّم له، ولست بأهل أن تعترض عليه.

ولقد كان سلط البلايا على الأنبياء والمؤمنين، ولا تتغير قلوبُهم بنياتِهم، ينصر يوم بدر، سلط الأعداء يوم أحد، واعتقادات القوم ثابتة، يعلمهم أن لا يعترض عليه.

فأما أنت فاعتقادك مزلزل، أقل شيء يُحركه، وهذا أصل الأصول فمن تأمله وفهمه، سلم من الآفات، والوحشة.

الثانِي: أن هذا الذي ظاهره تعذيب، ربَّما لَم يكن فِي الباطن كذلك، فإنه يلطف بالمؤمن فيشغل بصره برؤية منْزله من الجنة، ويشغل القلب بالفكر فِي انتظار اللقاء، فلا تَحس الجوارح بِما يَجري؛ كتقطيع أيدي النسوة عند رؤية يوسف عليه السلام.

قال رسول الله ﷺ: **«إن العبد المؤمن إذا كان فِي انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه؛ كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حَتَّى يجلسوا منه مد البصر، ثُمَّ يَجيء ملك الموت حَتَّى يَجلس عند رأسه؛ فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلَى مغفرة من الله ورضوان؛ قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لَم يدعوها فِي يده طرفة**

عين، حَتَّى يأخذوها فيجعلوها فِي ذلك الكفن، وفِي ذلك الحنوط، وتَخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بِها، فلا يَمرون بِها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرُّوح الطيب، فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه الَّتِي كانوا يسمون بِها فِي الدنيا، ويشيعه من كل سماء مقربوها حَتَّى ينتهين به إلَى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي فِي عليين»[1].

وأما قوله: "ستفارق الْمَحبوبات".

فجوابه من وجهين:

أحدهما: أن الأغلب فيما يفارقه أنه يوشك فراقه خصوصًا إن كان شيخًا كبيرًا؛ فلا ينبغي أن يَحزن لفراق الدنيا من لا يَحزن.

الثاني: الرجاء بِملاقاة من هو أحب إليك، ودليل ذلك أنه ما من مؤمن يَموت، فيحب أن يرجع إلَى الدنيا، وما ذاك إلا لأنه راحة عظيمة.

وأما قوله: "سيبلى هذا البدن".

فجوابه: أن البلاء المركب لا يضر الراكب، والنظر إلَى ما يؤذي

(١) حديث صحيح مشهور: أخرجه أصحاب السنن إلا الترمذي.

النفس وينفعها، فأما نفس البدن، فليس بشيء إنَّما هو له.

وإذا ثبت هذا فإن الحق سبحانه أتلف هذا البدن الترابي المعرض للآفات، فإنه سيبدله ببدن لا يبلى فِي حياة لا تنفد، ويورثهم علم اليقين الذي تحصل به العقول الشفاء، ويبدل صعوبات التكليف بِحسن الجزاء، ويعطيهم أجورًا باقية عن أعمال منقطعة، ولا يبقى لموارثات التكلف والشعث فِي أيام الإجرام طعم عند أيام تشريف الجزاء.

فأما قوله: "وما تدري أين المصير"؟

فجوابه: أنَّى حسن الظن بربي، مؤمن به، وقد عرفت مصير أرواح المؤمنين.

فأما تأثير حسن الظن: قال رسول ﷺ: «**قال الله ﷻ: أنا عند حسن ظن عبدي بِي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني فِي نفسه ذكرته فِي نفسي، وإن ذكرني فِي ملأ ذكرته فِي ملأ خير منهم**»(١).

فليجعل المريض حسن الظن بالله شعاره ودثاره وليُقوِّ نفس رجائه، فإن الخوف سوط تساق به النفس إلَى الجد، وما بقي فِي الناقة موضع لشوط إنَّما حسن الظن حسن جدًّا.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/٣٨٤، ٥١٢- فتح)، ومسلم (٢٦٧٥).

ولا بأس أن يتذكر الإنسان ما له من خير؛ ليقوي قلبه بذلك.

وأما مصير أرواح المؤمنين فقد ذكرنا حالَها عند الخروج، وليعلم أنَّها تصير إلَى النعيم المخلد.

وإذا تيقن المؤمن أن للنفس وجودًا بعد الموت، وأن نفس المؤمن فِي راحة ونعيم هان عليه الأمر.

فإذا أحس الإنسان بالموت؛ فينبغي أن يلهج بـــ"لا إله إلا الله"، ويوصي من يلقنه إياها إن غفل عنها؛ ليكون آخر كلامه لا إله إلا الله.

قال رسول الله ﷺ: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**»(١).

وقال ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٢).

وكما ينبغي للمريض أن يحضر بقلبه ما ذكرنا، ويدفع كل آفة بِما يَردها، فينبغي أن ينظر إلَى إيْمانه، هل تغير، ويقف حارسًا لقلبه؛ لئلا يدخله شك أو شرك أو اعتراض وتسخط، فتخرج النفس على تلك الحال المكروهة بل ينبغي أن يجتهد فِي مراعاة الإيْمان، وتحقيق التوبة،

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦) من حديث أبِي سعيد الخدري و(٩١٧) من حديث أبِي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦).

وملاحظة الرضا بالقضاء، ومَحبة لقاء المولى، وحسن الظن به، ويَحمد الله على ما قدر؛ لتكون هذه الأشياء كالتقوية للشربة المرة، وكل هذا الجهاد ساعة يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت.

ومِمَّا يسلي عن الموت قول بعض الحكماء:

قد مات كل نبِي ومات كل نبيه

ومات كل لبيب وعالم وفقيه

لا يوحشك طريق كل الخلائق فيه

وقد خذل خلق كثير عند الموت:

فمنهم من أتاه الخذلان من أول مرضه، فلم يستدرك قبيحًا مضى، وربَّما أضاف إليه جورًا فِي وصيته.

ومنهم من فاجأه الخذلان فِي ساعة اشتداد الأمر؛ فمنهم من كفر؛ ومنهم من اعترض وتسخط، نعوذ بالله من الخذلان.

وهذا معنى سوء الخاتمة، وهو: أن يغلب القلب عند الموت الشك أو الجحود؛ فتقبض النفس على هذه الحالة، ودون ذلك أن يتسخط الأقدار.

وهذه حالة إن لَم ينعم فيها بالتوفيق للثبات وإلا؛ فالهلاك".اهـ كلام ابن الجوزي -رحِمه الله-.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني
أسباب الثبات على الإسلام

اعلم أخا الإيْمان -ثبتنا الله وإياك على صراطه المستقيم، وأورثنا جنة النعيم-: أن المولى ﷻ شرع لنا سبلاً من سلكها منحه الله حُلة الثبات، وحباه بنعمة التثبيت، منها:

١- نصرة دين الله:

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

وقال -عز شأنه-: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد:٧].

٢- القول الثابت السديد:

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

٣- الإنفاق فِي سبيل الله:

قال -جل ثناؤه-: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥].

٤- الدعاء:

قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠].

وقال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

٥- فعل المأمور وترك الْمَحظور:

كلما كان العبد أسدَّ قولاً، وأحسن عملاً كان أشد تثبيتًا كما قال ربنا -جل شأنه-: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٦-٦٩].

٦- تدبر القرآن الكريم:

واعلم أيها العبد المسلم أن مادة التثبيت وأصله من كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

٧- التأسي بالصالحين والدعاة السابقين:

قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

ولذلك كان رسول الله ﷺ يتلو على أصحابه من أخبار الدعاة السابقين الذين ثبتوا على الحق.

عن خباب بن الأرت ﷺ قال: «شكونا إلَى رسول الله ﷺ -وهو متوسد بردة له فِي ظل الكعبة- قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟؛ قال:

كان رجل فيمن قبلكم يُحفر له فِي الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمئشار[1]، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حَتَّى يسير الراكب من صنعاء[2] إلَى حضر موت لا

(١) هو المنشار، وهي لغة معروفة.

(٢) هي صنعاء دمشق، كما بينته فِي "الدعوة والدعاة بين تحقيق التوكل واستعجال النتائج" (ص٦٥).

لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[١].

عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال الملك: إنِّي قد كبرت، فابعث إلَيَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، وكان فِي طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسَمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلَى الراهب، فقال:

إذا خشيت الساحر فقل: حبسنِي أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنِي الساحر، فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فاخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حَتَّى يَمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس فأتى الراهب؛ فأخبره.

فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل منِّي قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه[٢] والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٦١٩، ٧/١٦٤-١٦٥، ١٢/٣١٥-٣١٦- فتح).

(٢) هو الذي يولد أعمى.

(٣) الأمراض.

فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بِهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجْمع إن أنت شفيتنِي، فقال: إنِّي لا أشفي أحدًا إنَّما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يَجلس، فقال له الملك: من ردَّ عليك بصرك؟

قال: ربي.

قال: أو لك رب غيري؟

قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حَتَّى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل.

فقال: إنِّي لا أشفي أحدًا إنَّما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبه حَتَّى دلَّ على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له:

ارجع عن دينك، فأبَى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار فِي مفرق رأسه فشقه حَتَّى وقع شقاه، ثُمَّ جيء بِجليس الملك فقيل له:

ارجع عن دينك، فأبَى، فوضع المنشار فِي مفرق رأسه[1] فشقه به حَتَّى وقع شقاه، ثُمَّ جيء بالغلام فقيل له:

---

(١) وسطه.

ارجع عن دينك؛ فأبَى، فدفعه إلَى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلَى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته[1]، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بِما شئت، فرجف الجبل، فسقطوا، وجاء يَمشي إلَى الملك.

فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟

فقال: كفانيهم الله تعالى.

فدفعه إلَى نفر من أصحابه فقال:

اذهبوا به فاحملوه فِي قرقور[2]، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بِما شئت فانكفأت بِهم السفينة، فغرقوا، وجاء يَمشي إلَى الملك.

فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟

فقال: كفانيهم الله تعالى.

فقال للملك: إنك لست بقاتلي حَتَّى تفعل ما آمرك به.

قال: ما هو؟

---

(١) أعلاه.

(٢) نوع من السفن.

قال: تَجمع الناس فِي صعيد واحد، وتصلبنِي على جذع[١] ثُمَّ خذ سهمًا من كنانتِي[٢]، ثُمَّ ضع السهم فِي كبد القوس[٣]، ثُمَّ قل: باسم الله رب الغلام، ثُمَّ ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنِي؛ فجمع الناس فِي صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثُمَّ أخذ سهمًا من كنانته، ثُمَّ وضع السهم فِي كبد القوس، ثُمَّ قال:

باسم الله رب الغلام، ثُمَّ رماه فوقع السهم فِي صدغه، فوضع يده فِي صدغه، فمات فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فأُتِي الملك فقيل له: أرأيت[٤] ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك؛ فقد آمن الناس.

فأمر بالأخدود[٥] بأفواه السكك فخدت[٦]، وأضرم فيها النيران، وقال: من لَم يرجع عن دينه فأقحموه فيها[٧]، أو قيل له اقتحم، ففعلوا حَتَّى جاءت

---

(١) هو العود من أعواد النخل.

(٢) بيت السهام.

(٣) وسطه.

(٤) أخبرنِي.

(٥) الشقوق فِي الأرض كالنهر الصغير.

(٦) شقت.

(٧) ألقوه.

امرأة ومعها صبِي لَها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لَها الغلام:

يا أمه اصبري فإنك على الحق»[١].

٨- حب الله ورسوله ﷺ[٢].

٩- الحب فِي الله والبغض في الله[٣].

١٠- كراهية الكفر والعودة إليه[٤].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيْمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مِمَّا سواهما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فِي الكفر كما يكره أن يقذف فِي النار»[٥].

١١- التواصي بالحق.

١٢- التواصي بالصبر.

١٣- التواصي بالمرحمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

(٢) انظر رسالتي: "حلاوة الإيْمان" (ص٣٣-٥٧).

(٣) انظر رسالتي: "الحب والبغض فِي الله".

(٤) انظر رسالتي: "حلاوة الإيْمان" (ص٥٧-٥٩).

(٥) أخرجه البخاري (١/٦٠- الفتح)، ومسلم (٢/١٣، ١٤-نووي).

إن التواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة ميثاق إسلامي أخذه الله ورسوله على الجيل القدوة الأول ومن تبعهم بإحسان إلَى يوم الدين؛ قال -عز ثناؤه-: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

وقال -تبارك اسمه-: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد:١٧-١٨].

وعن جرير بن عبد الله: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[(١)].

والنصيحة كلمة جامعة، معناها: حيازة الخير للمنصوح له، فهي من وجيز الكلام، بل ليس فِي الكلام كلمة مفردة تستوفي بِها العبارة عن معنى هذه الكلمة.

ولذلك جعلها رسول الله ﷺ الدِّين كله؛ عن تَميم الداري أن النَّبِي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**. قلنا: لمن؟

قال: **لله، ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٣٧- فتح)، ومسلم (٢/٣٩- نووي).

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا (١/١٣٧-فتح)، ومسلم (٢/٣٧- نووي) وغيرهما.

وما ذلك إلا لأنَّها مُحصلة لغرض الدِّين، حيث تبرز من خلالِها صورة الأمة المسلمة ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة، الأمة الَّتِي تشعر بوجودها كما تشعر بواجبها، وتعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من السير بالبشرية إلَى طريق الإيْمان والعمل الصالح، فتتواصى فيما بينها بِما يعينها على النهوض بالإمامة الكبرى، والأمانة العظمى.

فمن خلال لفظ النصيحة -المتضمن كلمة التواصي، ومعناه، وطبيعته، وحقيقته- تبرز صورة الأمة المتضامنة، المتضامة، الخيرة، الواعية، القيمة فِي الأرض على الحق والعدل والخير.

وهي أنصع وأرفع صورة للأمة المختارة الَّتِي أرادها الله أن تكون قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالخير والصبر فِي مودة وتعاون وتآخٍ، تنضح بِها كلمة التواصي.

إن التواصي بالحق ضرورة للنهوض بالحق؛ لأن المعوقات كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة، ...إلخ.

والتواصي تذكير، وتشجيع، وإصلاح، وإشعار بالقربى فِي الهدف والغاية، والأخوة فِي العبء والأمانة، فهو حصيلة الاتجاهات الفردية كلها، حيث تتفاعل معًا؛ فتتضاعف أضعافًا كثيرة؛ ويقوى أمرها، وتستغلظ،

فتستوي على سوقها؛ لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربِّها.

والتواصي بالصبر ضرورة؛ لتتضاعف المقدرة على الثبات على الحق، بِما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المسار، وتعاضد الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار، فهو معيار تَماسك الأمة المسلمة، فهي أعضاء متجاوبة الحس، تشعر شعورًا واحدًا، فيوصي بعضها بعضًا بالصبر على العبء المشترك، ويثبت بعضها بعضًا، فلا تتخاذل، ويقوي بعضها بعضًا، فلا تولي يوم الزحف.

وهذا غير الصبر الفردي، وإن كان قائمًا عليه، فهو إيحاء جليٌّ بواجب المؤمن فِي الأمة المسلمة بألا يكون عنصر تخذيل وتثبيط، بل عنصر تثبيت، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام، ولا يكون مثار جزع بل مهبط سكينة وطمأنينة.

وكذلك التواصي بالمرحمة أمر فوق المرحمة؛ لأنه إشاعة الشعور بواجب التراحم والتعاطف والتواد فِي الصفوف المؤمنة؛ ليزداد البنيان تَماسكًا، حيث يكون التحاض على المرحمة واجبًا فرديًّا جماعيًّا فِي الوقت نفسه، يتعارف عليه الجميع، ويتعاون عليه الجميع.

١٤- ذكر الله:

إن لذكر الله حقيقة عميقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيْمان

قلوبَهم، فاطمأنت بذكر الله، يعرفونَها، ولا يَملكون بالكلمات أن ينقلوها إلَى الآخرين، الذين لَم يذوقوها؛ لأنَّها فوق الكلمات ... إنَّها طمأنينة تسري فِي القلب، وسكينة تجري منهم مَجرى الدم ... فيستروحها ويهشُّ لَها، ويندى لَها، ويستريح ويشعر بالثَّلَجِ فِي خلاياه.

وحسبك إخبار مقلب القلوب وعلام الغيوب: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد:٢٨].

وإذا اطمأن القلب ثبتت الأقدام، ولَم تعرف التردد والإحجام، ولذلك أمر مولانا الحق -جل جلاله- دعاة الحق بذكر الله عند الالتقاء بالأعداء: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الأنفال:٤٥].

وفِي هذا بيان أن ذكر الله عند ملاقاة العدو يطهر القلوب، ويذهب رجز الشيطان، ويثبت الأقدام.

١٥- التربية الإيْمانية:

لأن غراس الإسلام إن لَم يتعاهدها المربون المخلصون بالتربية الإيْمانية حَتَّى تنضج ثمارها، وتقطف فِي أوانِها، وإلا اعتورها فِي لحظة غفلة أو غرور انتفاضة قائمة على ضعف ونقص:

• ضعف فِي حقيقة الإيْمان الذي يربط على القلوب ويثبت الأقدام.

• ونقص فِي إدراك حقيقة الموقف الذي يواجهونه.

ويظهر هذا الضعف والنقص عندما يتخلى المدّعون والمستعجلون عنها فوجًا بعد فوج فِي مراحل الطريق.

وهذه الحماسة الجماعية قد تخدع القائد؛ لو أخذها بِمظهرها الأخاذ، وبريقها النفاذ؛ فيجب أن يضعها على محك التجربة قبل أن يقف معهم وبِهم الموقف الحاسم.

وقد ضرب لنا الله فِي كتابه مثلاً فقال -جل وعز-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ

مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

[البقرة:٢٤٦-٢٥٢].

لقد تقدم الملأ من بني إسرائيل إلَى نبي لَهم من بعد موسى -عليه الصلاة والسلام- أن يختار لَهم ملكًا يقودهم إلَى معركة مع أعداء الله.

وهم فِي طلبهم مُخطئون؛ حيث فصلوا بين أهل القيادة وأهل العبادة فظنوا أنَّهم على مفترق طريق؛ ففصلوا بين الدِّين والدنيا، فالقائد الذي يطلبون أمامهم لو كانوا يبصرون وهو نبيهم الذي يُخاطبون؛ فإن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، أو ليست

المعركة الحاسمة من ضروريات سياسة الأمة؟!

ويدرك نبيهم ضعفهم وغفلتهم؛ فيريد أن يرشدهم ولكن بإجابة الحكيم؛ فيستوثق منهم قائلاً: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾.

وهنا غلا الزبد المعربد مستنكرًا، وارتفعت حَماسته إِلَى الذروة، وبدأ يطرح حوافز المعركة، ومسوغات القتال، وضرورة الاستعجال: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾. ولكن هذه الحماسة الجياشة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتَهاوت جذوتُها على مراحل الطريق: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. ومع أن ديدن بني إسرائيل النكول عن العهد والنكوص عن الوعد، والتفلت من الطاعة، والتفرق فِي منتصف الطريق، والتولي عن الحق المبين، فقد خذلوا موسى عليه السلام من قبل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، فِي الجماعات والْمُجتمعات الَّتِي لَم تبلغ تربيتها الإيْمانية مبلغًا عاليًا؛ فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

ولذلك فهي سمة ينبغي للقيادة الراشدة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابَها فِي الطريق الشاق الوعر، كي لا تفاجأ بِها فيتعاظمها الأمر، فهي متوقعة فِي الجماعات الَّتِي لَم تخلص من الأوشاب ولَم تُطهَّر من هذه العقبات ولَم تطهر فِي بوتقة التربية الإيْمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير.

وفِي هذا الحوار الساخن بين القيادة البصيرة والمستعجلين الذين يريدون أن يزبِّبوا قبل أن يحصرموا لحاجة فِي نفوسهم؛ فتسقط الأقنعة الزائفة، وتتهاوى الشعارات البراقة، ويتضح أن الملأ من بني إسرائيل يطلبون صيدًا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى

يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢٤٧].

أنَّهم اتخذوا شعار الجهاد والقتال فِي سبيل الله، وتحرير الوطن السليب، والذود عن الأعراض والأولاد سُلَّمًا، أما دخيلة نفوسهم فهي أنَّهم يريدون الملك ولا شيء غير الحكم، ولكنهم يريدون أن يأتِي هذا الحكم عن طريق الدعاة إلَى الله؛ ليواروا سوآتِهم أمام الناس.

ويُخطئ الملأ مرة آخرى عندما يتركون مقياس الدِّين ويلجأون إلَى مقاييس الطين؛ فينغضون رءوسهم، ويلوون أعناقهم ويُجادلون نبيهم اختيار الله لَهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾.

ولكن سرعان ما تتجلى حكمة الله فِي اصطفاء طالوت ملكًا وأحقيته الذاتية فِي ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧].

إنه رجل اختاره الله، وهذه تكفي؛ فاختيار الله ليس كاختيار البشر، إن الله زاده بسطة فِي العلم والجسم وهذا بيان للناس أن القيادة الراشدة الَّتِي تسير بالناس نَحو خلافة على منهاج النبوة هي القائمة على ميراث النبوة، والأنبياء لَم يورثوا دينارًا ولا درهَمًا، إنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بِحظ وافر: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

وسرعان ما يتجلى رسوخ طالوت فِي العلم، إنه اصطفاء الله، فهو

ربانِي يريد أن يربي جنده على صغار الأمور قبل كبارها؛ لأنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة ومهزومة مرة بعد أخرى، وهو يواجه جيشًا قويًّا، فلابد أن يسلح جنده بقوة كامنة تستطيع الوقوف أمام القوة الظاهرة الغالبة، إنَّها الإرادة الَّتِي تضبط الشهوات، وتكبح النَّزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الحاجات وتؤثر الطاعات، فتجتاز الابتلاء بثبات، فلابد للقائد الراشد أن يبلو إرادة جنده، وصمودهم وصبرهم.

وانظر كيف يختار طالوت هذه التجربة، إن جنده عطاش، وأمامهم نَهر؛ فهو يريد ابتلاءهم؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينكص على عقبه، ويؤثر العافية الفانية: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

شربوا وارتووا، وحصلت المفاصلة والتميز؛ لأنَّهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم، إذن فمن الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنَّهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة لو كانوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، والجيوش ليست بالعدد الضخم، والتلميع الفخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيْمان الثابت المستقيم على الطريق.

وهكذا يتبين أن النية الكامنة وحدها لا تكفي، ولابد من التجربة العملية الَّتي تصقل المعدن؛ ليصلب العود قبل دخول المعركة.

ولكن هذا الخذلان لَم يهز القائد بل مضى فِي طريقه.

ولَم تكن هذه الغربلة المرة الأخيرة بل تكررت التجربة: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾.

إنَّهم لَم ينكصوا، ولكنهم أمام واقع؛ يرون بأعينهم أنَّهم أضعف من مواجهته.

ولكنها التجربة الخاتمة: تجربة الاعتزاز بالله الذي لا غالب له، وهذا مقام لا يصمد له إلا من اكتمل إيْمانه، وأصبحت له موازين يستمدها من واقع إيْمانه غير الموازين الَّتي يستمدها الناس من واقع حالهم.

وهنا برزت الطائفة المؤمنة، القليلة المختارة ذات الموازين الربانية: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

هذه هي القاعدة: أن تكون الطائفة المؤمنة قليلة؛ لأن الرقي إلَى القمة شاق يتساقط خلاله أهل النفاق حَتَّى ينتهي إلَى مرتبة الاصطفاء والاختيار، ولكن القلة تكون الغالبة؛ لأنَّها مرتبطة بالقوي العزيز الذي لا

يذل من والاه، ولا ينتصر من عاداه، ولا يضام من لجأ إلَى حماه، ولن يضل من استضاء بِهداه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة:١٢٠].

وهذه القلة المؤمنة الثابتة لَم تزلزلها كثرة العدو وقوته؛ لأنَّها هي الَّتي تَحسم المعركة بِمواصلة عهدها مع الله؛ لأنه وحده واهب النصر والحياة: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:١٠].

وكانت النتيجة الَّتي ترقبوها واستيقنوها: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

ويؤكد النص حقيقة: أن النتيجة بيد الله وبإذنه ومن عنده؛ ليعلمها المؤمنون؛ فيزدادوا بِها علمًا وثباتًا.

ويعود النص القرآني فِي لفتة بليغة ليؤكد خطأ الملأ من بنِي إسرائيل الذين فصلوا بين أهل العبادة وأهل القيادة؛ فظنوا أن ما لله لله وما لقيصر لقيصر، ونسوا أو تناسوا أن كل شيء لله، فيبرز دور داود -عليه الصلاة والسلام-، وأنه قتل جالوت، بينما لَم يتمكن طالوت من ذلك وهو القائد الذي اختاره الله لقيادة بني إسرائيل، تنبيهًا للغافلين أن أهل العلم والعبادة هم أهل القيادة، وأن عروتَهما لا تنفصم ولا تقبل القسمة إلا على سنن بنِي إسرائيل المغضوب عليهم: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ

الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

وقد كانت العبادة والقيادة فِي بنِي إسرائيل لأنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم- الذين كانوا يسوسون بني إسرائيل.

عن أبِي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خَمس سنين؛ فسمعته يُحدث عن النَّبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء؛ فيكثرون**. قالوا: ما تأمرنا؟ قال: **فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم**»(١).

وحكمة طالوت الَّتِي أظهرها وهو يقود جنده إلَى المعركة، فعلا بِهم وارتفع حَتَّى حقق بِهم النصر على عدوهم بإذن الله، هذه الحكمة الَّتِي تنبئ عن بسطة العلم الَّتِي حبا الله بِها طالوت مأخوذة من سياسة نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو يوشع بن نون فتى موسى -عليهما الصلاة والسلام-، ودونك تبيان هذا المقام، لكيلا تضل أفهام، وتزل أقدام، أو يبقى فِي نفوس تردد وإحجام.

عن أبِي هريرة ﷺ قال: قال النَّبي ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء؛ فقال**

(١) أخرجه البخاري (٦/٤٩٥-فتح)، ومسلم (١٢/١٣٢- نووي).

لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بِها، ولما يبن بِها، ولا أحدٌ بنى بيوتًا، ولَم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنمًا أو خلفات[1]، وهو ينتظر ولادتَها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك؛ فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا، فحبست حَتَّى فتح الله عليهم؛ فجمع الغنائم، فجاءت -يعنِي: النار- لتأكلها فلم تطعمها؛ فقال: إن فيكم غلولاً؛ فليبايعني من كل قبيلة رجل؛ فلزقت يد رجل بيده؛ فقال: فيكم الغلول، فليبايعني قبيلتك؛ فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده؛ فقال: فيكم الغلول؛ فجاءوا برأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار، فأكلتها، ثُمَّ أحل الله لنا الغنائم رأى ضعفنا وعجزنا؛ فأحلها لنا»[2].

أ- أما أن هذا النَّبِي هو يوشع بن نون -عليه الصلاة والسلام-؛ فإن الشمس لَم تُحبس إلا له؛ لقول رسول الله ﷺ: «**إن الشمس لَم تحبس على بشر إلا يوشع ليال سار إلَى بيت المقدس**»[3].

ب- أما أنه قبل طالوت، فنص القرآن يؤكده: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى**﴾.

(١) هي النوق الحوامل، وقد يطلق على غيرها.

(٢) أخرجه البخاري (٦/٢٢٠، ٩/٢٢٣-فتح)، ومسلم (١٧٤٧).

(٣) **حديث صحيح**: كما بينه شيخنا -رحِمه الله- فِي "الصحيحة" (٢٠٢)، وفيه بحث نفيس بيّن فيه ضعف ما خالفه، وانظر "الضعيفة" (٢/٣٩٥-٤٠٢).

ويوشع بن نون -عليه الصلاة والسلام- هو فتى موسى -عليه الصلاة والسلام- الذي دخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة بعد مرحلة التيه الَّتِي كتبت عليهم حيث لَم يقاتلوا مع موسى -عليه الصلاة والسلام-.

ت- أما أن خطة طالوت مأخوذة من سياسة يوشع بن نون -عليه الصلاة والسلام-؛ فظاهر أن يوشع بن نون -عليه الصلاة والسلام- أمر جنده أن يخرج منهم من كان قلبه متعلقًا بالرجوع؛ لأن فتن الدنيا تدعو النفس إلَى الهلع عند اللقاء، والجبن عندما يَحمى الوطيس حبًّا فِي البقاء، ومن كان كذلك فهو بذرة ضعف، وثغرة يتسلل منها العدو؛ فلا بد من استئصاله من صفوف الجيش الزاحف.

وخطة طالوت لَم تَخرج عن هذه السياسة الشرعية؛ فهي ضمن قواعدها المرعية.

ث- خطة طالوت فِي مواجهة جالوت وجنده وجه لبسطة العلم الَّتِي حباه الله بِها، وهذا العلم علمٌ موروث من الأنبياء، ولَم يكن رأيًا، أو اجتهادًا، أو تقليدًا؛ فتبين أن العلم النافع والدواء الناجع هو ميراث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

ولله در القائل:

العلم قــال الله قــال رسولــه قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف جهالة بين الرسول وبين رأي فقيه

وعودًا على بدء؛ فإن إبراز القرآن لدور داود -عليه الصلاة والسلام- فِي نِهاية المعركة، وبيان حاله، وأنه كان ملكًا نبيًّا هو: للدلالة على أن أهل العلم الأثري هم الذين ينبغي أن يقودوا الأمة إلَى النصر والتمكين والاستخلاف فِي الأرض بإذن الله، وليعبد الله وحده، ويكون الدِّين كله لله، ويكون الذل والصغار على من خالف أمره.

وانظر -رحِمك الله- إلَى هذا الغبش فِي التصور الذي وقع فيه الملأ من بنِي إسرائيل كيف قادهم فِي الخاتمة إلَى الانحراف الكبير والتولي يوم الزحف.

فليحذر النابِهون هذا المزلق؛ فإنه من سنن بنِي إسرائيل، فإياكم وإياهم.

فهي سمة بشرية عامة لا تتغير إلا بالتربية الإيْمانية ذات الموازين الربانية، الطويلة الأمد، العميقة التأثير، والَّتِي هي منهج الطائفة الناجية والفرقة المنصورة فِي التغيير.

وانظر إلَى رسول الله ﷺ يؤكد هذا المنهج فِي نفوس أصحابه فِي بيعة العقبة الكبرى عند أخذ العهد والميثاق عليهم، فقال له العباس بن

عبادة بن نضلة: «والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: **لَم أؤمر بذلك**»[(١)].

وهذا المنهج التربوي الإيْمانِي الذي درج عليه الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- دعا إليه القرآن فِي مواضع كثيرة؛ وهو من أعظم ما يدل على حكمة الله ﷻ، ومن أعظم ما يُرقي العاملين إلَى كل خير فِي الدنيا والآخرة.

لأن العامل إذا اشتغل بعمله الذي هو وظيفة وقته قصر فكره وظاهره وباطنه عليه؛ فينجح، ويفلح، ويتم له الأمر، فمن تأنى نال ما تَمنى.

وإن استشرف أعمالاً وأحوالاً لَم يَحن وقتها، ولَم يأن قطافها وقع على أم رأسه، واقتلع من أسه، ويومئذ فلا يلومن إلا نفسه؛ لأنه قد حفر رمسه بنفسه.

فإنه إن شُغل بِها أهمل العمل الذي هو وظيفة وقته، وقد رأينا أناسًا زعموا: أنَّهم يسعون لاستئناف حياة إسلامية، ويدعون لوجود دولة إسلامية، ومع ذلك لا يطبقون الإسلام فِي حياتِهم الشخصية، قائلين:

(١) جزء من حديث كعب بن مالك ﷺ الطويل فِي بيعة العقبة الكبرى، وهو صحيح، كما بينته فِي كتابي: "**إتحاف السالك بفوائد حديث المخلفين من رواية كعب بن مالك**".

الأهم أن نقيم دولة الإسلام، ونرفع راية القرآن.

ولقد كلمت أحد مقدميهم وأنه يجب عليه أن يأمر زوجته بجلباب المرأة المسلمة، فقال: لا قوامة للرجال على النساء إلا بوجود خليفة مسلم!.

وإن استبعد حصولها؛ فترت عزيمته، وانحلت همته، وصار نظره إلَى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر، وجَمع الهمة عليه.

ثُمَّ إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد قلَّ نشاطه، وربَّما كان الثانِي متوقفًا على الأول فِي حصوله أو تكميله؛ فيفوت الأول والثانِي، بخلاف من جَمع قلبه وقالبه على كل عمل فِي وقته، فإنه إذا جاء العمل الثانِي يأتيه مستعدًا له بقوة ونشاط جديدين حصلهما من نشاطه وقوته فِي العمل الأول، فيتلقاه بشوق وعزيمة، وهكذا هو أبدًا متجدد القوى؛ لأنه يستنير بالهدى، وخالف النفس والهوى؛ فينجح، ويفلح، ويفوز.

ولقد كشف الله هذا المنهج فِي قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا**﴾ [النساء:٦٦].

فالله أرشد الخلق أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معينًا على الثانِي، فكان العبد أقوى نباتًا، وأشد ثباتًا، وأما من جعل حياته كفاتًا؛ فمثله من جعل له الليل معاشًا والنهار سباتًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

١٦- الاعتقاد بأن المستقبل للإسلام:

الإسلام منهج حياة واقعية بكل مقوماتِها، فهو يحدد مكان الإنسان وغايته في هذا الوجود.

وهذه المقومات مترابطة غير منفصل بعضها عن بعض؛ لأنَّها منظمة لشتى جوانب الحياة البشرية، ملبية لشتى حاجات الإنسان الحقيقية، مهيمنة على شتى أوجه النشاط الإنساني.

والإسلام ليس عقيدة منعزلة عن واقع الناس، وليس مُجرد شعائر تعبدية تؤدى فرادى أو جماعة، وليس مُجرد طريق إلى الآخرة دون الالتفات إلى الدنيا.

والإسلام من الوضوح ومن العمق والقوة في هذا المعنى بحيث لا

يُمكن تصويره في صورة الحياة الوحدانية المنبتة عن واقع الحياة الإنسانية على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها أعداء الله منذ قرون لحصر الإسلام في دائرة الأحوال الشخصية، وكفه عن الهيمنة على نظم الحياة الواقعية ... كما هو حقيقته ... وكما هو وظيفته.

ولذلك فالمستقبل لهذا الدين الذي ارتضاه رب العالمين؛ لأنه منهج حياة:

❊ فهو -وحده- القادر على إنقاذ البشرية مِمَّا يحدق بِها من أخطار ماحقة.

❊ وهو -وحده- القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتِها ولاحتياجاتِها الحقيقية.

❊ وهو -وحده- القادر على تنسيق خطاها في الإبداع المادي والاطمئنان الروحي.

❊ وهو -وحده- القادر على ذلك كله كما عرفته أول مرة.

❊ ولقد ثبت الإسلام -وهو أعزل- في وجه كل المحاولات التي تبغي اجتثاثه ولَم يولِّ دبره؛ لأن عناصر القوة كامنة في طبيعته.

❊ كامنة في يسره ووضوحه وشموله، وموافقته للفطرة البشرية،

وتلبيته لحاجاتها الحقيقية.

❊ كامنة في استعلائه عن عُبوديَّة العباد بالعبودية لرب العالمين ... وفي رفض التلقي إلا من اللطيف الخبير، ورفض الخضوع إلا له.

❊ كامنة في استعلاء أهله بالإيْمان على الملابسات الطارئة كالوقوع تحت تسلط الجبارين... فهذا السلطان يبقى خارج نطاق القلب والروح مهما اشتدت وطأته... ومن ثَمَّ لا تقع الهزيمة الإيْمانية طالما عَمَرَ الإسلام القلب والروح، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين.

وجملة ما سبق: فنحن نعتقد أن المستقبل لهذا الدين، وقد مضى ذلك بشرى في كلام رب العالمين: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** [التوبة:٣٣].

وقال ربنا ﷻ: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** [الفتح:٢٨].

وقال أيضًا تبارك وتعالى: **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** [الصف:٨-٩].

هذا الاعتقاد هو الذي صنع الجيل القدوة الأول مُحَمَّدًا ﷺ والذين معه، وتأمل هذا النص القرآني: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن

يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٩-٢٧].

إن العبد المؤمن ليتلو هذا النص القرآني فيجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلَى اليقين الجازم وإلَى الاطمئنان العميق.

إن النص القرآني يذكر المؤمنين بحادث الأحزاب، حيث لَم يكن معركة خسائر بل معركة أعصاب، ومع ذلك فهي من أهم المعارك في

تاريخ الإسلام؛ إذ أن مصير الإسلام كان فيه أشبه برجل يَمشي على حافة قمة سامقة، أو حبل ممدود، فلو اختل توازنه لحظة، أو اضطرب فؤاده لمحة، لهوى من مرتفعه إلَى واد سحيق، ممزق الأعضاء، ممزع الأشلاء، ولقد أصبح المسلمون كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها بالغرق ليلاً ونَهارًا ... جيش عرمرم يريد أن يستأصل شأفتهم، ويجتث جذورهم: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ**﴾.

يا للهول الذي روع المدينة النبوية، ويا للكرب الذي شملها، والذي لَم ينج منه أحد من أهلها فقد أطبق المشركون من قريش وغطفان ويهود من كل جانب: من أعلاها ومن أسفلها: ﴿**وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾.

لقد بلغ الخوف والكرب والضيق أشده فلم تعد الكلمات تطيقه؛ فيصورها رب العزة -تبارك وتعالى- بِملامح الوجوه، وحركات القلوب ونظرات الأبصار.

لَم يختلف الشعور بالكرب والهول فِي قلب عن قلب وإنَّما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله وسلوكها فِي الشدة، ونظراتُها للمقدمات والنتائج ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾.

ومن ثَمَّ كان ابتلاء كاملاً، وامتحانًا شاملاً، وهولاً مروعًا رعيبًا

زلزل المؤمنين زلزالاً شديدًا: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾.

ولذلك كان التميز بين المنافقين والمؤمنين حاسمًا لا تردد فيه، واضحًا لا غبش يأتيه، صريحًا لا لبس يعتريه.

لقد وجد المنافقون والذين فِي قلوبِهم مرض فِي الكرب المُزَلزل، والشدة الآخذة الخناق فرصة سانحة للكشف عن خبيئة أنفسهم فلا يلومهم أحد، وفرصة فِي التثبيط والتخذيل وبث الشك والريبة فِي وعد الله ورسوله فلا يأخذهم بقولهم أحد أو يرد عليهم أحد؛ فالواقع المشاهد بظاهره يصدقهم فِي التوهين والتشكيك، فقد اجتمعت الجزيرة على حرب مُحَمَّد ﷺ والذين معه ... فالهوى أزاح عن وجوههم قناع التجمل، والكرب كشف إيْمانِهم المهلهل، وهذه نتائج عدم الثبات والتوكل عند نزول الهول المزلزل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

ولذلك فهم ينتحلون الأعذار الكاذبة ... فتراهم يستأذنون رسول الله ﷺ بحجة أن بيوتَهم عورة... مكشوفة للعدو... متروكة بلا حِماية ... فإقامتهم أمام الخندق مرابطين لا موضع لَها ولا مَحل ولا معنَى، وبيوتُهم معرضة للخطر من ورائهم.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

وهنا يبدأ النص القرآني بكشف حقيقتهم، ويُجردهم من العذر والحجة، ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾.

وهذه الصورة الظاهرية للهزيمة النفسية المنبثقة عن وهن العقيدة، وخور الفؤاد ... فهم مستعدون للانسلاخ من الصف بمجرد موافقة: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾.

ولكن لَم هذا النقض والغدر ... إنه ابتغاء النجاة من الخطر، والأمان من الفزع... إنه التصور البوار الذي دعاهم إلَى نقض العهد والفرار.

ولكن الموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه فِي موعده لا يستقدم لحظة ولا يتأخر، ولن ينفع الفرار فِي دفع القدر المحتوم عن الفارِّ فلا عاصم اليوم من أمر الله.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ

إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾.

كل هؤلاء المعوقين المثبطين والمرجفين يعلمهم الله، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، وما يخططون وما يمكرون.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وأما هذا الزلزال الشديد: كفار الجزيرة الذين تحزبوا ضد الرسول ﷺ، والذين معه، والمرجفون المثبطون الذين والوا الأحزاب، وكشفوا عن حقيقة النفاق، ويهود بني قريظة الذين نقضوا العهد والميثاق... كانت هناك جماعة مطمئنة وسط الزلزال، واثقة بالله الكبير المتعال، مستيقنة من نصر الله وإن طال ... على رأسها رسول الله ﷺ الذي أخذ يعمل في الخندق مع المسلمين، يضرب بالفأس، ويجرف التراب بالمسحاة،

ويَحمله فِي المكتل، ويرفع صوته مع المرتجزين وهم يرفعون أصواتَهم بالرجز فِي أثناء العمل، فيشاركهم فِي الترجيع!، ولا تحسبن عمل رسول الله ﷺ فِي ذلك كله من قبيل التمثيل الذي يُحسنه كل ساسة عصرنا .. كلا.. كلا.. إن الرجولة الكاملة فِي أنبل صورها كانت تقتبس من مسلك رسول الله ﷺ فِي هذا الموقف وفِي كل موقف.

عن البراء بن عازب ﷺ قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حَتَّى وارى عني التراب جلدة بطنه -وكان كثير الشعر- فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصـــدقنا ولا صلينا

فأنـــزل سكينـــة علينـــا ... وثبت الأقـــدام إن لاقينا

إن الأُولى قد بغوا علينـــا ... وإن أرادوا فتنـــة أبينـــا

قال: وكان يمد صوته بآخرها[1].

وتأسَّى برسول الله ﷺ الرجال الكبار ممن لَم يألفوا هذا العمل من قبل، فشهدت المدينة النبوية منظرًا عجبًا، وجوهًا ناصعة تتألف منها فرق

(١) أخرجه البخاري (٧/٣٩٩-٤٠٠- فتح).

شتى تضرب بالفئوس وتحمل المكاتل، فتلبس حللاً من نسج الغبار المتراكم والعرق واللغوب: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾.

ثُمَّ كان رسول الله ﷺ يستشرف النصر من بعيد، ويراه رأي العين فِي ومضات الصخور على ضرب المعاول، فيحدث بِها المسلمين، ويبث فيهم الثقة والأمل واليقين... فمن أحكام السياسة الشرعية وإحكامها: إن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضني[1].

عن البراء بن العازب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بِحفر الخندق وعرض لنا صخرة فِي مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول.

قال: فشكوها إلَى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ -قال عوف: وأحسبه قال: وضع ثوبه- ثُمَّ هبط إلَى الصخرة، فأخذ المعول، فقال: **باسم الله**. فضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر، وقال: **الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إنِّي لأبصر قصورها الحمر من مكانِي هذا**. ثُمَّ قال: **باسم الله**. وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر. فقال: **الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس،**

---

(١) هذا قاعدة من قواعد التربية الإيْمان، أصَّلها رسول الله ﷺ وهو يصنع الجيل القدوة الأول، ودلالتها كثيرة، منها:

ما هو مذكور هنا، ومضى شيء من ذلك كما حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكانِي هذا.

ثُمَّ قال: **باسم الله.** وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: **الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنِّي لأبصر أبواب صنعاء من مكانِي هذا»**[1].

تفتتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأيِّد الجلد الموصول بالسماء، الراسخ على الأرض، ونظر الرسول ﷺ إلَى أصحابه ونفسه مفعمة بنصر الله.

ولك أن تتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول فِي القلوب، وقد انسابت الأحزاب حول المدينة، وضيقوا عليها الخناق، ولكن نفوس المسلمين لَم تطر شعاعًا بل جابَهوا الحاضر المُرَّ وهم موطدو الأمل فِي غدٍ كريم، لقد كان هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾.

إنَّها الصلة الَّتِي لا تنقطع بالله، والإدراك الذي لا يضل عن سنن

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣/٤) بإسناد حسنه الحافظ فِي "فتح الباري" (٣٩٧/٧)، وهو كما قال.

وخرج البخاري (٣٩٥/٧-فتح) قصة الصخرة مُختصرة.

الله، والثقة الَّتِي لا تتزعزع بثبات هذه السنن؛ وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها، وقد اتَّخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة كونَهم ناسًا من البشر -وللبشر طاقة- سببًا فِي انتظار النصر، لأَنَّهم صدَّقوا قول الله تعالى من قبل: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة:٢١٤].

وهاهم يزلزلون؛ فنصر الله قريب ... وصدق الله.

وهاهو رسول الله ﷺ يبشرهم بِميلاد فجر... وهم يعلمون بفطرتِهم وفراستهم: أنه كلما اشتد غلس الليل اقترب ميلاد الفجر ... وصدق رسوله.

وهكذا جعلهم إيْمانُهم بأن المستقبل لِهذا الدين ولو كره الكافرون يرتبطون بالعروة الوثقى الَّتِي تشدهم إلَى الله، وتَمنعهم من السقوط، وتَجدد فيهم الأمل، وتحرمهم من القنوط.

وكانوا بِهذا وذاك نَموذجًا فريدًا فِي الثبات على الدين.

وعلينا أن ندرك هذا لندرك قوة ثباتِهم ... علينا أن ندرك أَنَّهم بشر لَم يتخلَّوا عن طبيعة البشر بِما فيها من قوة ومن ضعف ... ولكنهم

بلغوا الكمال المهيأ لبني الإنسان ... لذلك علينا أن نتشبه بهم، ونتمسك بالعروة الوثقى لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، فنثبت ونستقر، ونقوى ونستمر، ونسير على الطريق: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب:٢٣].

هؤلاء هم الذين ثبتوا على الإيْمان رغم كيد الشيطان، فلنعش معهم ذكرى تُحيي القلوب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث
الثابتون على الإسلام

١ - أنس بن النضر ﷺ:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدنِي الله قتال المشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع.

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إنِّي أعتذر إليك مِمَّا صنع هؤلاء -يعنِي: أصحابه- وأبرأ إليك مِمَّا صنع هؤلاء -يعنِي: المشركين-.

ثُمَّ تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النَّضر، إنِّي لأجد ريحها من دون أحد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثَمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد

إلا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نرى -أو نظن- أن هذه الآية نزلت فيه وفِي أشباهه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلَى آخر الآية[١].

٢- خُبيبُ بن عدي وصحبه ﷺ:

عن أبِي هريرة ﷺ قال: «بعث النَّبِي ﷺ سرية عَينًا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت- وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب- فانطلقوا، حَتَّى إذا كان بين عسفان ومكة ذكروا لحيٍّ من هُذيل يقال لَهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم، حَتَّى أتوا منْزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتتبعوا آثارهم حَتَّى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لَجأوا إلَى فدفد[٢]، وجاء القوم فأحاطوا بِهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً.

فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل فِي ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حَتَّى قتلوا عاصمًا فِي سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد

(١) أخرجه البخاري (٦/٢١-فتح).

(٢) هي الرَّابية المشرفة.

ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بِها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبَى أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حَتَّى باعوهُما بِمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا، حَتَّى إذا أجْمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بِها[1]، فأعارته.

قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه حَتَّى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك منِي، وفِي يده الموسى. فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك -إن شاء الله-.

وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف[2] عنب وما بِمكة يومئذ ثَمرة، وإنه لموثق فِي الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله؛ فخرجوا به من الحرم ليقتلوه.

فقال: دعونِي أصلي ركعتين.

ثُمَّ انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت

(١) ليحلق عانته.

(٢) هو العنقود.

لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو.

ثُمَّ قال: اللهم أحصهم عددًا.

ثُمَّ قال:

ما أن أبالي حين أقتل مسلمًا علي أي شقٍّ كان فِي الله مصرعي

وذلك فِي ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزَّعِ

ثُمَّ قام إليه عقبة بن الحارث؛ فقتله.

وبعثت قريش إلَى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء»[1].

٣- عبد الله بن حذافة السهمي ﷺ:

وجه عمر ﷺ جيشًا إلَى الروم؛ فأسروا عبد الله بن حذافة، فذهبوا به إلَى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب مُحَمَّد.

فأمر به ملكهم، فجُرِّب بأشياء صبر عليها، ثُمَّ جعلوا له فِي بيت معه الخمر ولحم الخنْزير ثلاثًا لا يأكل، فاطلعوا عليه، فقالوا للملك:

---

(١) أخرجه البخاري (٧/٣٧٨-٣٧٩-فتح).

قد انثنى عنقه، فإن أخرجته وإلا مات، فأخرجه، وقال: ما منعك أن تأكل وتشرب؟.

قال: أما إن الضرورة كانت قد أحلتها لي، ولكن كرهت أن أشمِتكَ بالإسلام.

فقال: هل لك أن تَتَنصَّر وأعطيك نصف ملكي؛ قال: لو أعطيتنِي ما تَملك، وجَميع ما تَملك، وجَميع مُلك العرب، ما رجعت عن دين مُحَمَّد طرفة عين.

قال: إذن أقتلك.

قال: أنت وذاك.

فأمر به.

فصلب وقال للرماة: ارموه قريبًا من بدنه، وهو يعرض عليه، ويأبى.

ثُمَّ بكى، فقيل للملك: إنه بكى، فظن أنه قد جزع.

فقال: ردوه، ما أبكاك؟

قال: قلت: هي نفسٌ واحدة تُلقى السَّاعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى فِي النَّار فِي الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تُقبِّل رأسي وأخلي عنك؟ فقال له عبد الله: وعن جَميع الأسارى؟

قال: نعم، فَقَبَّل رأسه.

وقدم بالأسارى على عمر، فأخبره خبره.

فقال عمر: حقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقبَّل رأسه[١].

وثبت سعيد بن المسيب -رحِمه الله- أمام سياط بني أمية.

وثبت سعيد بن جبير -رحِمه الله- أمام سيف الحجاج بن يوسف الثقفي.

وثبت أحمد بن حنبل -رحِمه الله- فِي المحنة.

وثبت أحمد بن تيمية فِي سجن القلعة.

وموكب الثابتين طويل[٢]، وسلسلتهم لن تستأصل من الأرض

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (١٤/٢، ١٥).

وأخرجه ابن الجوزي فِي "الثبات عند الممات" (ص٥٣).

(٢) وانظر لزامًا "المحن" لأبي العرب مُحَمَّد بن أحمد بن تَميم التميمي، و"**الثبات عند الممات**" لابن الجوزي، ففيهما ما يثلج الفؤاد.

تصديقًا لموعود الله سبحانه على لسان رسول الله ﷺ: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حَتَّى يأتِيَ أمر الله وهم على ذلك**»[(١)].

والحمد لله على نعمته وهُداه، لا ربَّ غيره، ولا إله بحق سواه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٦/٦٢٣، ٦/٤٤٢-فتح)، ومسلم (١٣/٦٦-٦٧ نووي) من حديث معاوية رضي الله عنه.

وقد ورد عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم، وقد بينت تواتره فِي كتابي: "**اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة**".

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهارس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس المواضيع والفوائد

الموضوع..الصفحة

تقديم ٥

المقدمة الأولى: الثبات على الإسلام نعمة وتنبني على ثلاثة أركان ٩

❋ **الأول**: ما هي النعمة؟........................... ٩

❋ **الثاني**: الإسلام هو النعمة الحقيقية التامة ١٣

❋ **الثالث**: نعمة التثبيت ١٦

المقدمة الثانية: الثبات على الإسلام غرس ١٨

أ- لابد للشجرة من عروق، وساق، وفروع، وأوراق، وثمر ... ١٩

ب- لا تبقى الشجرة حية إلا بمادة تسقيها وتنميها............ ٢٠

ت- لابد أن يخالط الشجرة الطيبة نبت غريب ٢١

سعي المؤمن بين أمرين.............................. ٢٢

صفة الجيل القدوة الأول.............................. ٢٢

المقدمة الثالثة: غراس الإسلام باقية على الرغم من الرياح العاتية ٢٦

الفصل الأول: أبواب الثبات على الإسلام ٢٩

❊ **الأول:** الثبات في ساحات الجهاد في سبيل الله ٢٩

بيان ماهية الجهاد وأهميته ٣١

حالات الثبات في ساحات الجهاد ٣٣

الثبات قبل المعركة ومنهج الأنبياء في ذلك ٣٣

أهمية الثبات قبل المعركة في تحقيق النصر ٣٥

الثبات عند اللقاء وفي المعركة ٣٥

من أسباب الثبات في المعركة إتقان فنون القتال، ومباغتة العدو

لتحطيم قوته ٣٦

الثبات بعد النصر ٣٧

حال المؤمنين قبل النصر وبعده ٣٨-٣٩

❊ **الثاني:** الثبات في ميدان الدعوة إلى الله ٤٠

أهمية تَمَيُّز الدعاة ومفاصلة المنكر ٤١

من أساليب أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات ٤٣

خطورة الدخول على السلطان الفاسق أو الذي لا يحكم بِما أنزل الله... ٤٥
وصية سفيان الثوري لعباد بن عباد في ذلك..... ٤٥
تحليل نفيس لابن الجوزي في بيان خطورة دخول العلماء على الأمراء... ٤٥
أسباب نَهي السلف عن الدخول على السلطان يبينها الحافظ ابن رجب الحنبلي..... ٤٧
كلمة فصل في هذا الباب من كلام ابن عبد البر ٤٨
أشكال عصرية للدخول على السلطان وموالاة الحكام الذين لا يحكمون بِما أنزل الله ٤٩
مزالق الديمقراطية.. وكشف أساليبها الردية ٤٩
❊ **المزلق الأول**: المزلق العقدي ٥٠
❊ **المزلق الثاني**: تمييع القضية بالنسبة للجماهير ٥٢
❊ **المزلق الثالث**: لعبة الدبلوماسية في صالح أعداء الإسلام..... ٥٣
مقامة حقيقية من واقع الديمقراطية ٥٥
❊ **الثالث**: الثبات عند المصيبة ٥٦
❊ **الرابع**: الثبات عند الممات..... ٥٨

بيان فضيلة العقل والنقل ولزوم القبول منهما ٥٩
اتفاق العقل والنقل أن الدنيا دار بلاء..... ٦٠
المصاب بالمحبوب من الأهل ٦٢
فتنة إبليس عند الاحتضار وكيف تواجهه ٦٨
جوابه عن ألَم سكرات الموت ٦٩
جوابه عن قوله: «ما وجه هذا التعذيب» ٦٩
جوابه عن قوله: «ستفارق المحبوبات» ٧٢
جوابه عن قول: «سيبلى هذا البدن»..... ٧٢
جوابه عن قوله: «ما تدري أين المصير»..... ٧٣
معنى سوء الخاتِمة وأهمية الثبات عند الموت ٧٥
الفصل الثاني: أسباب الثبات على الإسلام ٧٧
١- نصرة دين الله ٧٧
٢- القول الثابت السديد ٧٧
٣- الإنفاق فِي سبيل الله ٧٧
٤- الدعاء ٧٨

٥- فعل المأمور وترك الْمَحظور ٧٨

٦- تدبر القرآن الكريم ٧٨

٧- التأسي بالصالحين والدعاة السابقين ٧٩

٨- حب الله ورسوله ﷺ ٨٤

٩- الحب فِي الله والبغض في الله. ٨٤

١٠- كراهية الكفر والعودة إليه ٨٤

١١- التواصي بالحق ٨٤

١٢- التواصي بالصبر ٨٤

١٣- التواصي بالمرحمة ٨٤

١٤- ذكر الله ٨٧

١٥- التربية الإيْمانية، وبيان أهميتها، وخطورة إغفالها، وأنَّها منهج الطائفة المؤمنة المختارة والفرقة الناجية في التغيير على مر العصور ٨٨

١٦- الاعتقاد بأن المستقبل للإسلام وأثره في تثبيت الجيل القدوة الأول ١٠٣

❁ **الفصل الثالث**: الثابتون على الإسلام ١١٧

١- أنس بن النضر رضي الله عنه ١١٧
٢- خُبيبُ بن عدي وصحبه رضي الله عنهم ١١٨
٣- عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ١٢٠
وآخرون ١٢٢
فهرس المواضيع والفوائد ١٢٧

I.P.C
المركز الدولي للطباعة
012/7930415
012/4179887

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com